جذور الانحياز:

دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

د. يوسف الحسن



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية
The Emirates Center for Strategic Studies and Research

سلسلة



محتوى المحاضرة لا يعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر المركز

قدمت هـذه المحاضرة يوم الثلاثاء الموافق 11 أيلول/ سبتمبر 2001

الطبعة الأولى 2002

ISSN 1682-122X

ISBN 9948-00-302-0

توجه المراسلات إلى رئيسة التحرير على العنوان التالي :

سلسلة محاضرات الإمارات ـ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص . ب : 4567

أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف : 6423776 - 9712 +

فاكس : 6428844 - 9712 +

e-mail: pubdis@ecssr.ac.ae

http://www.ecssr.ac.ae

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

مقدمـة

هناك تصور تقليدي مازال يسيطر على معارفنا السياسية ومدارسنا الفكرية المختلفة ؛ يعزو هذا التصور نجاح المشروع الصهيوني في إقامة دولة له في فلسطين، وفي استمرار ما يلاقيه من دعم أمريكي غير مشروط، إلى عدة عوامل، من أهمها :

1. العبقرية اليهودية! والمواهب السياسية والدبلوماسية الفذة للقادة اليهود الأوائل .

2. دقة التنظيم، وسعة انتشاره في الساحة العالمية، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية .

3. جماعات الضغط اليهودية المسماة باللوبي الصهيوني .

4. منظومة "المال اليهودي الوفير والسخي/ الصوت اليهودي الانتخابي النشط/ الآلة الإعلامية النافذة" .

5. توافق المصالح بين المشروع الصهيوني والسياسات الإمبريالية والاستعمار الجديد، والقوى العالمية المهيمنة .

لكن هذه العوامل وغيرها، على أهميتها البالغة، ليست القراءة الوحيدة لهذا الصراع، ولا تفسر وحدها المعاني الآتية :

1. معنى أن يكون الشعار الصهيوني المعروف (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) هو من صنع غير اليهود، وقد طرحه سياسيون وقساوسة بريطانيون على مؤتمر لندن عام 1840 ؛ أي قبل نصف قرن من ولادة الحركة الصهيونية اليهودية السياسية .

2. معنى أن تنشئ أموال غير يهودية أول مستوطنات يهودية في فلسطين، في منتصف القرن التاسع عشر، وأن يتبارى نبلاء بريطانيون ومبشرون إنجيليون غربيون، وعائلات ثرية مثل عائلة روكفلر المسيحية، في دعم الاستيطان وتشجيعه.

3. معنى أن يؤسس غير اليهود أول جماعة ضغط (لوبي) في الولايات المتحدة الأمريكية، تسمى "البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل" لصالح إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، في وقت كانت فيه أغلبية يهود أمريكا غير راغبة في الهجرة إلى فلسطين، ومعرضة عن الفكر الصهيوني الحركي السياسي. وهو فكر جُوبه بعدم الاكتراث أو حتى بالاحتقار من قبل أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى الاندماج في عالم جديد (أمريكا)، وينشدون السلامة والرخاء. وعليه، فإن الصهيونية في نظر غالبية اليهود كانت «تهدد الاندماج الناجح في المجتمع الأوسع»[1].

4. معنى أن يوقع رئيس مجلس النواب الأمريكي وأعضاء كثيرون من الكونجرس ورجال أعمال وقساوسة، على عريضة قدمت إلى الرئيس الأمريكي عام 1891 (قبل مؤتمر بازل الصهيوني) تأييداً لإقامة دولة يهودية في فلسطين.

5. معاني أحاديث الرئيس الأمريكي وودرو ولسون عن "ضرورة استعادة اليهود للأرض المقدسة". ولا يفسر ذلك أيضاً موافقة الكونجرس في عام 1922 على وعد بلفور، وأعضاؤه يستشهدون بنصوص توراتية تؤيد «إعطاء اليهود الفرصة لإعادة تأسيس وطن على الأرض اليهودية

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

القديمة»[2]. كان ذلك يجري في وقت لا حاجة فيه للأصوات اليهودية أو المال اليهودي، وفي غياب اللوبي اليهودي الذي لم يتأسس إلا في عام 1954 تحت اسم (إيباك).

6. معنى اعتراف الرئيس الأمريكي هاري ترومان بإسرائيل، حتى قبل أن تطلب منه ذلك حكومة إسرائيل المؤقتة بشكل رسمي. ولم يكن هذا الموقف الأمريكي بقصد كسب أصوات يهودية، أو نتيجة ضغط اللوبي الصهيوني الذي لم يكن قد ولد بعد، وإنما كان موقفه يعكس خلفيته الدينية التوراتية. وتشير قصة حياته الشخصية إلى أنها كانت حافلة بالإشارات التي تبرر الوطن القومي لليهود في فلسطين، ويقول هو عن نفسه: «إنني قورش»؛ أي الملك الفارسي الذي أعاد "يهود السبي" من بابل إلى فلسطين.

7. خلفية الموقف السياسي للسيئ الذكر وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور، وهو يصدر وعده المشؤوم عام 1917. لقد أدى هذا السياسي البريطاني أهم دور في إخراج أهم أجزاء المشروع الصهيوني، وكان هذا الوعد أول اعتراف دولي بالصهيونية السياسية، وبمشروعها لإقامة دولة لليهود في فلسطين، وبخاصة بعد إدماج "الوعد" في عملية الانتداب البريطاني، وضمان عصبة الأمم المتحدة له في عام 1922. لقد أنكر وعد بلفور وجود شعب فلسطين العربي، ولم يشر إليه إلا «بالطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين»، رغم أن هذا الشعب كان يشكل أكثر من 95٪ من سكان فلسطين آنذاك.

وللأسف أن لا أحد من أصحاب التحليل والأيديولوجيات السياسية في الصراع العربي-الصهيوني، اقترب من مسألة الخلفية الدينية المؤمنة

بقصص التوراة لدى بلفور الذي كان يعلن صراحة أنه صهيوني. وتقول ابنة أخته ومؤرخة حياته بلانش دوجاديل: «لقد تأثر بلفور منذ نعومة أظفاره بدراسة التوراة في الكنيسة، وكان كلما اشتد عوده زاد إعجابه بالفلسفة اليهودية، وكانت أطروحات "شعب الله المختار" و"حقه في أرض الميعاد"، من أبرز معتقدات بلفور التي ورثها في طفولته، وتربى عليها ونشأ في إحدى الكنائس الإنجيلية السكوتلاندية»[3].

8. ولا تفسر أخيراً وليس آخراً هذا التحيز الواضح والجريء لإسرائيل، ولسياساتها التوسعية والعنصرية، حيث يتقدم هذا التحيز على كل مسائل حقوق الإنسان والاعتبارات الاقتصادية والسياسية، وأن دولاً في الغرب على استعداد للذهاب إلى حافة الحرب، إذا لزم الأمر، للحفاظ على أمن إسرائيل، رغم أنها - مثلاً - أحد أثقل الأعباء على عاتق دافع الضرائب الأمريكي. وأن سياسيين مستعدون لاتخاذ مواقف من شأنها أن تظهر إسرائيل وكأنها جزء من أمريكا، حتى من قبل سياسيين في مناطق لا وجود لليهود فيها (مثل هاواي مثلاً).

وأكثر من ذلك، قد يعجز الباحث المحايد عن تفسير ما قاله الرئيس الأمريكي السابق بيل كلنتون، ونشرته وكالات الأنباء والصحف العالمية، في أثناء آخر زيارة له إلى إسرائيل في فترة حكم بنيامين نتنياهو: «إن قسيساً ذكر له، قبل أن يتولى الرئاسة في البيت الأبيض أنه سيكون له شأن عظيم، وسيغفر الله له كل خطاياه، إلا الخطايا التي يرتكبها تجاه إسرائيل».

لقد مارس الإسرائيليون على مدى أكثر من نصف قرن كل أنواع السلب والتطهير العرقي والعقاب الجماعي والتمييز العنصري والطرد والهدم والاحتلال والتزوير ضد الشعب العربي الفلسطيني. ورغم هذه

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

الممارسات البشعة اللاإنسانية فإن غالبية القوى الحية ووسائل الإعلام في مجتمعات غربية، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، لم تتأثر بهذه الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية، بل تواصلت مساندتها وتزايد دعمها لإسرائيل. ومن الغريب أنه في الوقت الذي كانت فيه صحف إسرائيلية، مثل صحيفة **هاآرتس**، تغطي تفاصيل وحشية الجنود الإسرائيليين وهم يواجهون أطفال الانتفاضة، وتنشر فضائح الجنود وهم ينهبون إحدى القرى في جنوب لبنان المحتل، فإن صحيفة أمريكية مثل **نيويورك تايمز**، عندما أعادت طبع هذه المقالات الإسرائيلية، حذفت رقابة التحرير فيها الفقرات التي تتحدث عن واقعة النهب، وفقاً لما قاله روبرت فسك في صحيفة **إندبندنت** البريطانية في كانون الأول/ ديسمبر 2000.

ولنتذكر، قبل أن أنهي هذا الجزء التمهيدي من البحث، أن الخطاب السياسي لنخب وقيادات عسكرية ومدنية ودينية كثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، لا يستخدم مصطلحات "الالتزام الأدبي أو الأخلاقي أو التراث المشترك" إلا مع إسرائيل، وليس مع أي دولة أخرى، مهما بلغت درجة العلاقات معها.

ولنستمع إلى حديث الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر أمام الكنيست في آذار/ مارس 1979 وهو يقول: «لقد آمن سبعة رؤساء، وجسّدوا هذا الإيمان، بأن علاقات أمريكا مع إسرائيل هي أكثر من علاقة خاصة، بل هي علاقة فريدة، لأنها متجذرة في ضمير وأخلاق ومعتقدات الشعب الأمريكي. لقد شكل أمريكا وإسرائيل مهاجرون طليعيون، ونحن معاً نتقاسم تراث التوراة»[4].

هذه إذاً نماذج اخترتها بحثاً عن تفسير لها، ولعلها هي هذا المشهد

الديني الخفي أو المهمش أو المفقود في تفسير التحيز أو الدور، وهو المشهد ـ الظاهرة التي اخترت أن أسميها "الصهيونية غير اليهودية" أو "الصهيونية الأصولية المسيحية".

أولاً: جذور الصهيونية المسيحية

1. حركة الإصلاح الديني في أوربا

ترجع جذور "الصهيونية" إلى فكر وعقائد طرحتها حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر، في عدد من الدول الأنجلوسكسونية. حيث رأت هذه الحركة أن التوراة هي "كلمة الله المعصومة"، ورأت في النبوءات والأساطير التوراتية قانوناً وتاريخاً، وجعلت من مجمل "العهد القديم" مرشداً لحياة الناس الدينية والزمنية، بما فيها الأدبية والثقافية والفنية. وتحول العديد من البروتستانتيين في القرن السابع عشر إلى اليهودية، واعتبرت حركة الإصلاح الديني بمنزلة بعث "يهودي"، وبخاصة بعدما ركزت اهتمامها وأولوياتها على ما يعرف بالتوراة، وهي سجل لتاريخ أنبياء بني إسرائيل وملوكهم وقادتهم وعباداتهم وأشعارهم والأساطير التي حيكت حولهم وتقاليدهم... إلخ.

ولعل هذا التحول الديني كان من أبرز التحولات في تاريخ الأفكار والعقائد التي عرفتها البشرية عقب انتهاء القرون الوسطى. فأوربا كانت في حالة عداء نفسياً وعملياً لليهود قبل ولادة حركة الإصلاح الديني، وتأسست فيها "عقيدة ضد اليهود" تؤدي مباشرة إلى إيذاء اليهودي بدنياً على اعتبار أن اليهود رفضوا رسالة المسيح عليه السلام، وأن أجيالاً يهودية توالت بعد ذلك على المنهج نفسه، ومن ثم يجب أن يعاقبوا على جريمة ما يسمى بصلب المسيح.

وكانت أوربا قد شهدت خلال القرن الثاني عشر عمليات ذبح جماعية لليهود في فرنسا وإنجلترا وألمانيا، وبخاصة في مطلع تسيير الحملات الصليبية (الفرنجة) إلى فلسطين، وذلك تنفيذاً لقول اليهود في محاكمة المسيح: «دمه علينا وعلى أولادنا»، وطلباً للغفران قبل "تحرير القدس"!

وكانت صورة اليهودي قرب نهاية القرون الوسطى لا تظهر في الرسوم والحكايات الشعبية إلا على صورة إنسان نجس وخاطئ، وعلى شكل "بومة" أو "أفعى"، كما ظهرت صورة اليهودي التائه صاحب الأنف المقوس والرجل الهرم ذي اللحية والملامح العابسة والكريهة.

واعتادت الجماعات اليهودية حياة الاضطهاد، فمالت إلى العزلة، وأدى هذا الوضع إلى بروز ظاهرة (الجيتو) في أواخر القرن الخامس عشر، حيث تم وضع اليهود داخل أحياء منفصلة تحاط بها أسوار مرتفعة «ولها بوابتان يقف عليهما حرس مسيحي، وتغلق أبوابه في المساء»[5]. وكانت الجماعات اليهودية تتعرض للثورات الشعبية في أثناء حدوث أزمات أو انتشار مرض معين، مثل الطاعون أو الموت الأسود، حيث كان يلقى باللوم على اليهود «وتوجه إليهم تهمة نشر الوباء»[6]، ولعل كل هذا الاضطهاد هو الذي شكل العمق التاريخي للموقف الفكري والسياسي لحركة النازية الألمانية تجاه اليهود في القرن العشرين.

وهكذا عرفت أوربا سلسلة دامية من الأحداث والصراعات واضطهاد اليهود طوال القرون الوسطى. وقد طُرد اليهود من إنجلترا في نهاية القرن الثالث عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر، ولم تكن تسمح السلطات الإنجليزية لأعضاء الجماعات اليهودية بتولي المناصب في مجالس البلديات

أو في الوظائف المدنية حتى عام 1845، ولم يصل إلى البرلمان الإنجليزي عضو يهودي واحد حتى عام 1858، وكان أول وزير يهودي إنجليزي هو هربرت صمويل عام 1904.

وكذلك الحال في روسيا الأرثوذكسية، حيث لم يسمح لليهود بدخول المدارس الروسية حتى عام 1804، ولم يسمح لهم بالعمل في حقل المحاماة حتى عام 1864.

وفي فرنسا طرد اليهود في نهاية القرن الرابع عشر، أما في إسبانيا فقد عاش اليهود عصرهم الذهبي في أثناء الحكم العربي الإسلامي، لكنهم طردوا أو أجبروا على التنصر فور سقوط الحكم العربي الإسلامي في الأندلس في نهاية القرن الخامس عشر.

وعانى اليهود العزل والقتل والتمييز لأسباب متعددة؛ من بينها عوامل دينية (كمسألة صلب أو قتل المسيح)، وعوامل اقتصادية مرتبطة بالوظيفة الربوية للجماعات اليهودية.

بانتهاء العصور الوسطى وقبل مطلع القرن السادس عشر، شهد التاريخ أحداثاً فاصلة مثل: فتح القسطنطينية عام 1453، واختراع الطباعة عام 1454، وسقوط الحكم العربي الإسلامي في الأندلس عام 1493، واكتشاف أمريكا، وبدء الاكتشافات الكبرى، من طرق بحرية ومصادر خامات وغيرها.

ومع نهاية القرن السادس عشر، هاجر بعض يهود إسبانيا إلى فرنسا وهولندا وإنجلترا، بحيث صارت أوربا راغبة في استخدام الوظائف الاقتصادية لليهود في ميدان الصراع بين العواصم الأوربية.

كانت أوربا حتى ذلك الوقت تدين بالكاثوليكية، لكن بحلول القرن السادس عشر بدأ الكثيرون يضيقون بسلطة البابا، وظهر مارتن لوثر متحدياً دور هذه الكنيسة، لاحتكارها تفسير الكتب الدينية المسيحية، ولمسائل بيع صكوك الغفران للناس... إلخ. وانتشرت دعوته وأتباعه في أجزاء كبيرة في أوربا، وصار من حق كل مسيحي قادر أن يقرأ التوراة والأناجيل وأن يفسرها، وترجمت للغات مختلفة بعد أن كانت حكراً على اللاتينية والإغريقية. وما يهمنا في هذه الحركة الكنسية الجديدة أنها اهتمت بـ "العهد القديم" الذي صار المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد، وفتحت الباب أمام تفسيرات وتأويلات و"بدع" في اللاهوت المسيحي. وأمست معتقدات يهود "العهد القديم" وأرض فلسطين أموراً مقبولة في الفكر والثقافة والفنون الغربية، وصارت قصص التوراة مألوفة كالخبز، ترددها العامة والنخب عن ظهر قلب، وصار المسيح نفسه واحداً من الأنبياء العبرانيين، وحل قادة وأبطال التوراة محل القديسين الكاثوليك. كل ذلك كان يتم في جو استرجاعي قوي إلى عقيدة "عودة المسيح الثانية" والتركيز على دور اليهود في هذه "العودة"، وكونهم مجرد "أداة للخلاص" وبوابة حتمية لانتشار المسيحية. ومن ثم تحولت فلسطين في الأذهان إلى أرض موعودة للشعب اليهودي المختار، وبات الربط بين الأرض واليهود يرد في الطقوس والشعائر الدينية، وجُرّدت فلسطين من دلالاتها المسيحية بعد أن كانت أرض المسيح المقدسة، ومن أجلها كانت الحملات الصليبية، لكنها الآن تحولت إلى وطن لليهود الذين تشكل عودتهم إليها المقدمة الحتمية لعودة المسيح المنتظر.

2. المجيء الثاني للمسيح عند المسيحية

تعتبر مسألة "المجيء الثاني للمسيح" من الأركان الأساسية للإيمان المسيحي، ومن أهم موضوعات الإنجيل، ولا يخلو سفر من أسفاره من الحديث عن المجيء الثاني للمسيح، وكل مسيحيي العالم تقريباً يؤمنون بهذه المسألة، إلا أن الاختلاف يقع في كيفية وتفاصيل هذا المجيء. وقد نجحت الصهيونية في إقناع بعض المسيحيين بأن إنشاء "إسرائيل" هي علامة من علامات المجيء الثاني، وأن عودة المسيح سوف تكون بصورة عنيفة وقوية، ليقف مع إسرائيل في مواجهة "قوى الشر" في العالم، التي يهزمها في موقعة دموية قاسية. وبعد الانتصار على هذه القوى الشريرة، يقوم المسيح بحكم العالم لمدة ألف عام.

وقد ظهر هذا الإيمان في تاريخ الفكر المسيحي اللاهوتي من خلال عدة نظريات، جاءت جميعها مبنية على تفسير ما جاء في سفر الرؤيا (20 : 1-10) (وهو آخر أسفار العهد الجديد)، وفيه يروي يوحنا حلمه الذي رآه حول مستقبل العالم، حيث رأى ملاكاً نازلاً من السماء، يقبض على إبليس ويقيده بسلسلة عظيمة لمدة ألف عام لكي لا يُضل أحداً، ثم متى تمت الألف عام حلّ إبليس من قيده «ليضل الأمم، ويجمع يأجوج ومأجوج الذين عددهم مثل رمل البحر»، «ليحاصروا معسكر القديسين والمدينة المحبوبة»، عندها ينزل الله ناراً من السماء لتأكلهم وإبليس والنبي الكذاب المسمى بالمسيح الدجال.

وقد انقسم المسيحيون حول تفسير هذه الرؤيا إلى فرق عديدة: من بينها فريق يرى أن المسيح سوف يأتي إثر حدوث اضطراب شديد في الأرض (كالحروب والمجاعات والزلازل)، ويسمونها "الضيقة

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

العظيمة"، وعندما يأتي المسيح يقوم الأموات المؤمنون به من القبور، وتتحول أجساد المؤمنين الأحياء إلى أجساد سماوية، «والكل سوف يخطف لملاقاة المسيح في الهواء»، ثم بعد ذلك ينزلون معه إلى الأرض، فيتم تقييد إبليس وينتهي حكم المعادين للمسيح على الأرض، ويعود اليهود بشكل جماعي إلى المسيح ويؤمنون به، ويعترفون بخطاياهم، وعندئذ يبدأ حكم المسيح على الأرض لمدة ألف عام. ويكون المسيح مرئياً وحرفياً، ويسود العدل والسلام كل الدنيا، وتتحول الطبيعة الشريرة في كل المخلوقات إلى طبيعة خيّرة، وباقتراب نهاية الألف عام يحل إبليس من قيوده، ويخرج ليضل الأمم مرة ثانية، ويجمع كل الأمم معه للمعركة الأخيرة ضد المسيح، وبخاصة منهم جوج (يفسرونها بملك روسيا) ومأجوج (ملك تركيا أو المسلمين أو الصين) ويقودهم للهجوم على معسكر القديسين الذي يضم المسيح وشعبه في القدس، وتقع معركة "هرمجدون" (Armageddon)، ولكن تأتي فجأة نار من السماء وتبيدهم، ويلقى بإبليس في جهنم إلى الأبد.

وانتشرت هذه النظرية بقوة في القرن الرابع الميلادي، ثم عادت إلى الظهور في القرن السادس عشر، وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ولاسيما أثناء الثورة الفرنسية.

وهناك فريق آخر فسر هذه الرؤيا وبطريقة حرفية على إسرائيل، وأعطى لليهود مكانة عظمى على غيرهم من الأمم، ويرى هذا الفريق أنه سيتم تجميع اليهود أثناء "الضيقة العظيمة" من كل أنحاء العالم، وبمجرد دخول المسيح إلى القدس ملكاً يقيد إبليس، وسيعاد بناء الهيكل وتقدم الذبائح عليه ثانية، ويرث اليهود الأرض، ويدخلون ملكوت الله بصفة شعب مختار.

وهناك فريق ثالث يرى أن المجيء الثاني للمسيح ليس حرفياً، وليس لمدة ألف عام بالضبط، وأن اليهود ستعود إلى المسيح بطريقة طبيعية ودون عنف.

وفريق رابع يفسر هذه المسألة على أساس أن مجيء المسيح لا إشارة له، ولا أحد يعلم متى يجيء، لكن هذا الفريق لا ينكر أن هناك أحداثاً سوف تتحقق قبل المجيء الثاني للمسيح؛ مثل تنصير بعض اليهود. ويؤكد هذا الفريق أن الكتاب المقدس لم يتحدث مطلقاً عن عودة اليهود إلى فلسطين، أو عن مُلك المسيح في القدس، أو عن دور لليهود في التاريخ منفصل عن غيرهم من الأمم، وليس لديهم أي امتياز لدى الله، ولا وجود لهم بصفة شعب الله. وهذه النظرية الأخيرة هي التي تتبناها الكنيسة الإنجيلية في مصر، وترفض كل ما يتعلق بوجود إسرائيل في فلسطين كعلامة لمجيء المسيح.

من ناحية أخرى، تشير الأدبيات اليهودية إلى أن فكرة المسيح المخلص موجودة في التراث اليهودي، ويسمى "الماشّيح" وهو ملك من نسل داوود. وتزعم المعتقدات اليهودية أنه سيصل في نهاية التاريخ ليملأ الدنيا عدلاً ويؤسس مملكة صهيون في فلسطين بعد أن يبطش بأعداء اليهود، وسيمكن اليهود من حكم العالم. لكن الصهيونية بوصفها عقيدة يهودية سياسية ترى في نفسها "الماشّيح" اليهودي دون مسيح مخلص، وأنها هي التي ستؤسس مملكة صهيون الجديدة في فلسطين.

3. تهويد المسيحية

وهكذا بدأت ظاهرة الصهيونية المسيحية، وفي صلبها مسألة "دور اليهود" في الخطة الإلهية للعودة الثانية للمسيح، والتي تتطلب جمعهم في الأرض الموعودة (فلسطين) واستعادة "المدينة المحبوبة" كما ورد في التوراة أي القدس وبناء "الهيكل"، مما يهيئ المسرح لمعركة "هرمجدون" بين

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

الخير والشر، ليأتي المسيح ثانية وينتصر الخير ويقيم مملكة الألف عام السعيدة، وفقاً لهذا الإيمان الأصولي المسيحي البروتستانتي، والمرتبط بالتفسير الحرفي لكل عبارات العهد القديم.

وقد لاقت حركة الإصلاح الديني المسيحي ترحيباً واسعاً بين اليهود، باعتبار أنها قسّمت أعداء اليهود، لكن أتباع مارتن لوثر هاجموا اليهود بسبب إعلانهم أن التلمود يعطي تفسيراً أفضل من تفسير لوثر للكتاب المقدس، ورفضهم الدعوة للعودة إلى المسيحية. فقام اللوثريون بطرد اليهود من المدن الألمانية والإنجليزية، وواصلوا العمليات التبشيرية بين اليهود، وفي الوقت نفسه كانوا يؤسسون لأطروحة "استرجاع" اليهود إلى فلسطين، إعداداً للخلاص اللاهوتي.

ومن الجدير بالذكر، أن الكاثوليكية عملت على تطوير الكنيسة عبر العصور، وخلصتها من الكثير من العناصر الوثنية العالقة بها، وخصوصاً العهد القديم. وكان هناك اتجاه في بدايات العهد المسيحي لإلغاء "العهد القديم"، وعدم اعتباره ضمن الكتب القانونية الدينية، لكن اتجاهاً آخر رأى في حذفه خسارة للمسيحية، إذ يعني ذلك حرمان الكنيسة من حقها في "وراثة" اليهودية. لكن هذا الأمر تطلب من الكنيسة المسيحية محاصرة العناصر الوثنية في العهد القديم، وتقديم تفسيرات مجازية ورمزية لكل ما جاء فيه. فكلمات القدس أو أورشليم أو صهيون أو الأرض الموعودة... إلخ عند الكاثوليكية، تحمل معاني روحية «وتقع في السماء، وليست أسماء لأمكنة حقيقية على الأرض». كما رأت في مسألة "عودة اليهود إلى فلسطين" أنها عودة تمت قبل ميلاد المسيح، حينما عاد بعض يهود من سبي بابل في القرن الخامس قبل

الميلاد، وأن أمر اليهود انتهى «كشعب يحفظ وديعة ويسلمها للمسيحيين»، وأن "الشعب المختار" هو كل من يؤمن بالله. وفي رسائل بولس في العهد الجديد، نجد كلمة "المختارين" وهي تعني عند المسيحية التقليدية "المؤمنين"، ولا يعقل أن يقول الله سبحانه وتعالى لمن يؤمن به: «أنا لا أعرفك... أنا لا أعرف غير اليهود»[7].

واعتبرت المسيحية التقليدية أن ما ورد في العهد القديم هو أحداث وقعت في الماضي أو نبوءات تم تحققها، وأن ما جاء في "العهد الجديد" هو ثورة على "العهد القديم"، وفقاً لما جاء في إنجيل يوحنا «لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم»، ورأت أن كل القصص التي رواها العهد القديم هي رموز لحالات روحية وأخلاقية. ذلك أن "إسرائيل الجديدة" مثلاً هي الكنيسة، وأن خراب القدس قد تحقق بالفعل عام 70م على يد تيطوس، وليس كما تقول "البروتستانتية الصهيونية المعاصرة" إن الخراب وقع على يد "الأغيار" في عام 1948.

كما تؤمن الكاثوليكية التقليدية بأن إبراهيم عليه السلام عندما أخذ الوعد من الله بالأرض، لم يفهمه على أنه تصريح له من الله بسرقة الأرض من مالكها، حتى لو كانت الأرض هبة من الله فهي مشروطة بطاعة الواهب.

كما ترى أيضاً أن العهد مرتبط بتحقيق وصايا الله وطاعته لا رفض حكمه، وأن أرض الميعاد الحقيقية عند المسيح هي الأرض كلها، وكل أرض يتحقق فيها وعد الله.

كما أن الكاثوليكية لا ترى في القدس - المدينة التي لم تتجاوب مع دعوة المسيح ورسالته والتي حوكم فيها - علامةً من علامات المجيء الثاني

للمسيح. ولعل هذه التفسيرات، وهذا الإيمان، ما أبقى كتاب "العهد الجديد" منفصلاً عن كتاب "العهد القديم"، ولم يجمعا معاً في كتاب واحد أطلق عليه اسم "الكتاب المقدس" إلا مع ولادة حركة الإصلاح الديني (البروتستانتية) على يد الملك هنري الثامن عام 1538، عندما تمت ترجمته إلى الإنجليزية وإتاحته للناس للقراءة، وقد تم ذلك عندما رفض البابا طلاق هنري من زوجته آن بولين مما دفعه إلى تبني حركة الإصلاح الديني.

ويمكن القول إن جمع "الكتابين" في مجلد واحد هو من التحولات البارزة في عالم الأفكار والأديان.

وهكذا، فإنه مع عصر النهضة وحركة الإصلاح الديني، أخذت التفسيرات الحرفية والشخصية للعهد القديم تنتشر وتسود، وذهب أتباع هذه الحركة إلى الاقتناع بأن ما ورد في العهد القديم هو نبوءة حرفية عن المستقبل. وخرجت من بطن هذه الحركة وتفسيراتها عقائد عبرت عن المدى الذي وصلت إليه عملية تهويد المسيحية، من بينها "العقيدة الألفية" (Milleniumanist Doctrine)، وهي عقيدة تعود في جذورها إلى اليهودية، لكن البروتستانتية أحيتها وجعلتها فكرة مركزية في عقيدتها، وتدور حول عودة المسيح المخلّص الذي سيحكم العالم لمدة ألف عام، حيث «يسود خلالها السلام والعدل في مجتمع الإنسان والحيوان»[8].

ورغم أن العهد القديم لم يذكر نصاً حول هذه العقيدة التي تتحدث عن نهاية الأزمنة فإن عناصر يهودية روجت لهذه العقيدة في عدد من المؤلفات والكتب، تعبيراً عن تطلع يهودي لفكرة "الملك المقدس" في المستقبل، والذي يأتي على هيئة "ماشّيح" عبراني[9]، في حين رأت المسيحية

التقليدية في هذه العقيدة نوعاً من الهرطقة والكفر، واعتبرت الكنيسة الكاثوليكية هي "مملكة المسيح".

لكن هذه العقيدة بعثت من جديد في القرن السادس عشر، وصارت فكرة محورية في عقول وإيمان معظم الكنائس البروتستانتية، وشكلت مسألة عودة المسيح الثانية أبرز تجليات هذه العقيدة. أما اليهود في هذه العقيدة فهم يشكلون محورها وبشارتها، وهم "شعب الله المختار القديم"، والذي يفترض تواصله في الماضي والحاضر والمستقبل، وأن أرض فلسطين هي أرض اليهود التي وعدهم الإله بها، واعتبار أن "وعد الله" لا يسقط بالتقادم ولا يتراجع حتى وإن رفض اليهود المسيح؛ ولذا فإن كل من يعارض اليهود أو يقف في وجه عودتهم إلى فلسطين، يعتبر من أعداء الله وأعداء المسيح. والمحور الأساسي في هذا كله يدور حول الشروط التي يجب توافرها لتحقيق العصر الألفي السعيد، وعودة المسيح الثانية، وأهم هذه الشروط هو "استرجاع" أو "نقل" اليهود إلى فلسطين.

وقد أدت هذه العقيدة إلى انتشار ظاهرة قبول اليهود في عدد من الدول الأوربية؛ ففي منتصف القرن السابع عشر تم الاعتراف بالجماعات اليهودية، وحصلت على وعد بحرية ممارسة عباداتها، بعد أن ظلت بريطانيا خالية من اليهود تقريباً حتى نهاية القرن السادس عشر. ولم يحصل اليهود على حقوق المواطنة إلا ابتداء من عام 1718، وكان يقف وراء هذا الاعتراف تطلعات المجتمع الإنجليزي التجارية الاستعمارية.

وحينما طرحت فكرة الصهيونية اليهودية في نهاية القرن التاسع عشر، عارضها معظم اليهود الإنجليز، بسبب رغبتهم في الاندماج، في حين كانت الثقافة البروتستانتية السائدة تحمل في نسيجها صهيونية مسيحية مبكرة، وقد تبلورت فيما بعد على شكل "وعد بلفور" المعروف.

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

من ناحية أخرى، فإن هذه الظاهرة أو العقيدة لم تبق حبيسة النخب الكنسية والسياسية ورجال القانون والقضاء، وإنما تسربت إلى قطاعات مختلفة في المجتمع، وصارت أكثر مصادر الإلهام لفناني وشعراء وعلماء القارة الأوربية وساستها؛ من أمثال:

- الأديب والشاعر جون ملتون الذي كتب قصيدته الشهيرة عن "الفردوس المفقود"، وعن عودة اليهود إلى فلسطين، ويقترح فيها تدريس العبرية في المدارس الثانوية.

- الفيلسوف جون لوك الذي يشير في كتابه **تعليقات على رسائل القديس بولس** إلى أن الله قادر على جمع اليهود في كيان واحد.

- العالم إسحاق نيوتن الذي قدم تفسيراً علمياً لعودة اليهود إلى فلسطين في كتابه **ملاحظات على نبوءات دانيال**، ووضع جدولاً زمنياً للأحداث التي تؤدي إلى عودة اليهود إلى فلسطين.

- العالم جوزيف بوستلي الكيميائي الذي اكتشف الأكسجين، دعا إلى إعادة توطين اليهود في أرض كنعان.

- جان جاك روسو (Rouseau) الذي ظهرت "دولة إسرائيل المستقبلية" في أعماله الأدبية والفنية، وبخاصة في كتابه عن التربية في عام 1762 والمسمى **إميل** (*Emile*)[10]. وكشفت لوحاته الفنية القليلة عن إعجابه بالأساطير التوراتية، وتبين لوحة (تيبولو) كيف ظهر الملاك لسارة ثم للنبي إبراهيم، وكيف ضحى إبراهيم بولده إسحاق!! وهناك لوحة فنية موجودة في متحف الأكاديميا في البندقية تصور النبي موسى وهو يرفع حية من نحاس ويقدمها إلى بني إسرائيل.

وقد امتزجت العناصر الدينية والدنيوية في كافة فنون القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهدفت نحو إقناع الحواس بصدق المعجزات الدينية. وعبر رمبرانت (1606 ـ 1669) الهولندي في لوحاته العديدة عن الإيمان المسيحي البروتستانتي بالأساطير التوراتية وقصصها، ومن بينها لوحة الملاك جبريل وهو يأمر إبراهيم بالعدول عن التضحية بولده. ومن ذلك أعمال روبنز (1577 ـ 1640) الموجودة في المتحف البريطاني بلندن، وبخاصة لوحة شمشون ودليلة. حتى إن طراز فن الباروك الذي نشأ في نهاية القرن السادس عشر واستمر حتى مطلع القرن الثامن عشر والذي يعتبر "التعبير الوجداني عن الكاثوليكية"، لم يخل من لوحات فنية عن قصص شمشون ودليلة اليهودية، وعن اليهود وهم يقدمون القرابين للعجل الذهبي، وهي لوحة موجودة في كنيسة لامادونا بالبندقية، ورسمها تنتوريتو في القرن السادس عشر.

وقد منح مايكل أنجلو (1475 ـ 1564) جهده الفني كله لخدمة العقيدة المسيحية، وأبدع في نحته لتمثال "داوود" وقدمه بشكل هرقلي الطابع هائل الفخامة وهو يترصد وصول جالوت الفلسطيني عدو شعبه، ولم يفته أن يختن داوود، كما تقتضي الشرائع اليهودية. كما أنجز تمثالاً للنبي موسى وفقاً للتوراة، وحينما فرغ من نحته تطلع إليه معجباً ولم يملك إلا أن صاح بأعلى صوته قائلاً: «والآن.. فلتنهض... ولتنطق». والتمثال موجود الآن في كنيسة القديس بطرس في روما[11].

إلى هذا الحد كان التأثير الذي أحدثته التحولات في الفكر والعقيدة والاهتمام المسيحي. في حين كان جل الاهتمامات الأدبية والفنية والفكرية

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

في القرون السابقة لحركة الإصلاح الديني يتمحور في إطار المسيحية التقليدية ومشاهد العهد الجديد، حيث ركز المبدعون من رسامين ومصورين وفنانين على قصص المسيح ومريم العذراء والقديسين المسيحيين، ومولد المسيح والرعيان والصلب وهروب العائلة المقدسة إلى مصر، وسقوط آدم وحواء في الخطيئة، وخيانة يهوذا للمسيح، ورؤى القديسين ومعجزاتهم، ودخول المسيح إلى "أورشليم"، في لوحات جوتو وبوتسنيا ومارتيني وغيرهم من فناني أوربا، وبخاصة إيطاليا. كما انعكس هذا التصور المسيحي التقليدي في مجالاته الفنية، في المنابر واللوحات الجدارية وأطر النوافذ والأعمدة والكرانيش (الأفاريز) في البيوت والقصور والأديرة. لكن كل ذلك تراجع في القرون التالية لولادة حركة الإصلاح الديني. وبرزت شخصيات أنبياء اليهود في الأدب الأوربي، وتراجعت عن المقدمة أسماء أبطال المسيحية الأولى ورموز اليونان القدامى، وصارت فلسطين هي "الأرض اليهودية" في الفكر والثقافة والسياسة والفلسفة... إلخ.

وبعد أن كانت اللغة العبرية بدعة وهرطقة برزت بجوار اللاتينية واليونانية والإنجليزية، واستعملت في حروف الطباعة، وعم الأدب التوراتي. وصارت التوراة مصدراً للمعلومات التاريخية، فتقلص أو اختفى التاريخ الشامل لفلسطين ليقتصر على الوجود اليهودي فقط.

وتسربت الروح العبرية وقصص التوراة إلى الفنون والآداب الأوربية في القرن السابع عشر وما بعده، وكان مصدر الإلهام الأساسي هو "الكتاب المقدس" الذي فسره البعض على شكل قصص ومشاهد ولوحات أخاذة. وأصبح من المستحيل أن يتشرب الأوربي تاريخ التوراة

ولا يدعم "إعادة" شعبها إلى "الأرض الموعودة". وهذا كله تعبير عن "تهويد المسيحية"، ولا علاقة له بالرؤية المسيحية التقليدية كما عرّفها آباء الكنيسة الكاثوليكية ومفسروها الدينيون.

وبدأ الحديث عن "عمل من صنع البشر" بدلاً من "العناية الإلهية" (التي يؤمن بها اليهود في ذلك الوقت) لإعادة "شعب الله المختار" إلى فلسطين. ونشر المستشار القانوني للملك بريطانيا عام 1621 أول مشروع دولي "لإقامة إمبراطورية للأمة اليهودية" بعنوان **الاستعادة العظمى العالمية**، حيث طالب فيه الأمراء المسيحيون بجمع قواهم لاستعادة هذه الإمبراطورية التي تمهد لعودة المسيح المخلّص.

وسجل القرنان الثامن عشر والتاسع عشر بروز سياسيين يدّعون بأن اليهود "هم ورثة فلسطين الشرعيون"، وجاء نابليون بونابرت ودعا اليهود إلى حمل السلاح مقترحاً عليهم "إقامة دولة يهودية لهم في فلسطين"، لكن هذه الدعوة كانت تشوبها المصالح الإمبريالية، حيث كان نابليون يتطلع إلى مساهمة اليهود في تمويل حملته العسكرية لاحتلال فلسطين[12].

كما ظهر على المسرح السياسي رجال لهم نفوذ سياسي كبير يؤمنون بمعتقدات الصهيونية المسيحية، ومن أبرزهم اللورد شافتسبري (1801 ـ 1885)، وهو أحد قادة هذا الفكر الصهيوني المسيحي، ونشرت له صحيفة **التايمز** اللندنية في 17/ 8/ 1840 خطة لزرع اليهود في أرض فلسطين، وعقد آمالاً كبيرة على «التنقيب عن آثار فلسطين، للتدليل على صدق التوراة، وصحة ما ورد فيها»[13]، وتقدم إلى مؤتمر لندن عام 1840 بمشروع

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

إلى رئيس وزراء بريطانيا لتوطين اليهود في فلسطين، لأنها في رأيه «أرض من غير شعب، لشعب بلا أرض»[14]، وهكذا فقد صك هذا الشعار سياسي بريطاني متصهين، قبل ولادة الحركة الصهيونية السياسية بحوالي نصف قرن، وكان يرى في اليهود "شعب الله القديم" و"مفتاح الخطة الإلهية لمجيء المسيح ثانية". وقد تزامنت هذه الدعوات الصهيونية المبكرة، مع جهود بريطانية رسمية قادها اللورد بالمرستون (1784 ـ 1865) وزير خارجية بريطانيا ورئيس وزرائها فيما بعد، لنقل اليهود إلى فلسطين، وإقناع الحكومة العثمانية بتسهيل الهجرة اليهودية وعودة اليهود إلى فلسطين[15]. وهكذا، صارت مسألة توطين اليهود في فلسطين تتداخل فيها الاعتبارات الدينية والسياسية والاستراتيجية والتجارية، وقد أسهم سياسيون ورجال دين ورجال أعمال في تشجيع ودعم الاستيطان اليهودي في فلسطين. ولعل إنشاء صندوق استكشاف فلسطين عام 1864 برعاية الملكة وبرئاسة أسقف يورك، من أهم الآليات التي خدمت المشروع الصهيوني، وعملت على «إسكات التاريخ العربي الإسلامي والفلسطيني واختلاق إسرائيل القديمة»، على حد قول المؤلف البريطاني كيث وايتلام[16]. وقد تكللت جهود اللورد شافتسبري الصهيوني المسيحي بالنجاح حينما تم افتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس، بناء على اقتراحه في عام 1838.

ومن الواضح أنه دون هذه الأنشطة والبرامج البريطانية، ودون هذا التراث التوراتي، فإنه كان من المشكوك فيه أن يصدر وعد بلفور في أوائل القرن العشرين، رغم وجود عوامل استراتيجية برزت على المسرح الدولي آنذاك.

4. صندوق استكشاف فلسطين

أنشئ صندوق استكشاف فلسطين (Palestine Exploration Fund) مع بداية التغلغل الأوربي في مناطق الدولة العثمانية، وكان غرضه الأساسي "إثبات التراث التوراتي" من خلال البحث في آثار وجغرافية تاريخ فلسطين الطبيعي. ووضع خبراء الصندوق عشرات الخرائط التفصيلية لمدن فلسطين وقراها وآبارها وقلاعها وأنهارها، فضلاً عن نباتاتها وحيواناتها وآثارها، وقدم المساحون عشرات الخرائط والمجلدات في عام 1888، بعد أن أطلقوا أسماء توراتية على المواقع الفلسطينية، بهدف اختراع "إسرائيل القديمة" كأساس لفهم التوراة، وتكوين ماض يؤثر في المواقف السياسية الحاضرة.

وقد تحكم فريق بروتستانتي في توجيه التنقيبات الأثرية في فلسطين من خلال تأسيس هذا الصندوق، وقد تجاوز عمله استكشاف الآثار إلى إثبات تأويلات توراتية، وإحداث تغييرات في أسماء المواقع لصالح أسماء عبرانية مختلقة، وغرس مزاعم حول تدعيم الفهم الأوربي البروتستانتي السائد عن تاريخ فلسطين و"عودة اليهود" إليها، تمهيداً للعودة المنتظرة الثانية للمسيح! والادعاء بأن الحرم القدسي قائم على أنقاض ما يسمى بهيكل سليمان!

وكانت جمعية بريطانية قد أسست الصندوق في عام 1864 برعاية الملكة فكتوريا وبرئاسة أسقف يورك، وساهمت وزارة الحرب البريطانية بتقديم خدمات ضباطها ومهندسيها. ووظف هذا الصندوق عملية البحث العلمي لخدمة الأهداف التوراتية، وكان هدفه - كما يتضح من كتاب **المدنية والأرض** الذي أصدره الصندوق - هو «استعادة مجد فلسطين في عهد

هيرود، واستعادة بلاد داوود ومكانة القدس ومجدها، واستعادة أسماء الأماكن المذكورة في التوراة، وتتبع سير الجيوش في زحفها في عهد يوشع ابن نون... إلخ». وقد اعتمد الصندوق على عدد كبير من الخبراء في الآثار والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا، وكانت غالبية تقارير الصندوق ذات طابع صهيوني وتطالب بعودة اليهود إلى فلسطين، وإقامة كيان استيطاني لهم فيها تحت الحماية البريطانية. وهذا ما تم فيما بعد من خلال وعد بلفور، والانتداب البريطاني.

وركز الصندوق جهوده، على استكشاف الأماكن التي شهدت تنقلات "شعب إسرائيل" كما يقول، وأصدر خرائط دقيقة حملت الأسماء والتضاريس والمناخ، واستعملت أثناء تحرك الجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى.

ومن الجدير ذكره، أنه تبع إنشاء هذا الصندوق، إنشاء صناديق مماثلة في أمريكا؛ مثل "الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين" عام 1870، و"جمعية الآثار التوراتية في إنجلترا"، و"الجمعية الألمانية للبحوث الفلسطينية" عام 1877، و"الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية" عام 1897، و"المدرسة الفرنسية لدراسة آثار فلسطين". وكان الحافز الرئيسي وراء إنشاء هذه الجمعيات والصناديق هو خدمة العقيدة الصهيونية المسيحية، فضلاً عن أهداف استعمارية أخرى.

ولاشك في أن عوامل أخرى أدت دوراً في رفع وتيرة الهوس الديني الإنجليكاني البريطاني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عامة، وفي نهايته بخاصة. ويمكن تفسير هذا الهوس من خلال فهم الصراع الذي كان دائراً في تلك الأزمنة ما بين القوتين العظميين، بريطانيا وفرنسا، للهيمنة

على النظام الدولي آنذاك، حيث تحالفت بريطانيا "البروتستانتية" أكثر من مرة مع الباب العالي "المسلم" ضد فرنسا "الكاثوليكية"، وسعت إلى كسب مواقع لها في العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه عملت النخبة البريطانية الحاكمة على احتواء واستيعاب التأثيرات الهائلة للثورة الفرنسية، بهدف تفريغها من مضامينها الإنسانية، ووقف امتداد شعاراتها "الأرضية" المتمثلة في "الحرية والإخاء والمساواة". ولذلك عملت على تأجيج نيران الهوس الديني، ودعم ما يسمى بـ "الإحياء الإيفانجيلي العظيم الثاني"، وتشجيع انتشار تنبؤات دينية حول اقتراب عودة المسيح الثانية. وقد صبت هذه المزاعم والتأويلات في صالح انتشار شعارات وأفكار مثل "الأرض الموعودة" و"شعب الله المختار"، والمطالبة بتوفير الشروط التي ستجعل من عودة المسيح ثانية ممكنة. ولعل مثل هذه العوامل، كان لها التأثير البالغ في خلق فكرة إنشاء "صندوق استكشاف فلسطين"، بهدف إثبات صحة تأويل النخب البريطانية الحاكمة لما جاء في العهد القديم.

وهكذا يمكن القول إنه مع إدراك ما لفلسطين من أهمية استراتيجية في ميزان القوى الاستعمارية، فإن هذا التراث الأصولي المسيحي الصهيوني وما احتواه من قصص العهد القديم وتأويلاته التوراتية وتأثر قادة ونخب وعامة الناس بهذه التفسيرات والمعتقدات، كان له الأثر الكبير في الموقف البريطاني السياسي ولاسيما في صدور وعد بلفور. ويقول بيتر جروز، عضو لجنة التخطيط في وزارة الخارجية الأمريكية، في كتاب له صدر في نهاية السبعينيات من القرن العشرين: «كان بلفور أكثر فهماً لطموحات الصهيونية من هيرتزل نفسه، وعندما صدر هذا الوعد، كانت الجماعات اليهودية في إنجلترا صغيرة العدد ومندمجة في المجتمع، وكانت الحركة الصهيونية ضعيفة للغاية».

ثانياً: هجرة صهيونية مسيحية إلى أمريكا

1. البيوريتانيون الأوائل

كانت المسيحية الكاثوليكية ديانة معظم شعوب دول أوربا لمدة تزيد على ألف عام. لكن بحلول القرن السادس عشر، بدأ الكثيرون من كهنة وساسة أوربا يضيقون ذرعاً بسلطة الفاتيكان، ويمتعضون من بهرجة الكنائس. وانفصل مارتن لوثر، أحد الرهبان الألمان، عن الكنيسة الكاثوليكية. وشددت تعاليمه على مسؤولية الفرد المباشرة تجاه ربه، متحدياً بذلك دور الكنيسة الوسيط، بادئاً حركة مسيحية جديدة عرفت كما مر سابقاً بالإصلاح الديني أو بالمحتجين أو ما سمي "البروتستانت"، وانتشرت أفكارها في شمال أوربا، وانخرطت في حروب عديدة مع الكاثوليك لعشرات من السنين.

وفي إنجلترا، أسس الملك هنري الثامن كنيسة قومية بزعامته، وعرف أتباعها بـ"البيوريتانيين" أي التطهريين أو الأنقياء. لكن عندما اعتلى جيمس الأول عرش بريطانيا في عام 1603 بدأ باضطهاد البيوريتانيين، فسجن البعض وهرب البعض الآخر إلى أمريكا، وكانوا يحملون إذناً للإقامة فيها من شركة تسمى "شركة فرجينيا" وهي شركة خاصة كانت تملك مستعمرة في جيمس تاون في فرجينيا. وهاجر "الحجاج" (هكذا كان اسمهم) على ظهر سفينة تسمى ماي فلاور (May Flower) إلى اليابسة في "كيب كود" بولاية ماساتشوستس، حيث حكموا هناك. وبدؤوا بتوحيد قواهم لمواجهة مخاطر الحياة في هذه البراري والغابات، ولكونهم مؤمنين بعقيدة دينية فقد شكلوا طائفة كنسية تتألف من الأعضاء لاختيار قسيس، وأسسوا تجمعات كنسية من خلال "اتفاق" أو "عهد"

بينهم، كما وقعوا على "ميثاق ماي فلاور" تم بموجبه تشكيل هيئة سياسية مدنية قادرة على وضع قوانين عادلة ومساوية لمستعمرتهم. وسرعان ما تبعهم بيوريتانيون آخرون مهاجرون إلى أمريكا؛ أي العالم الجديد، وأسسوا مدناً هناك. وكانوا يقرؤون التوراة والإنجيل، وادعوا حق تفسير أو شرح معانيهما بأنفسهم، مثل سائر البروتستانت، مع إعطاء عناية خاصة بالعهد القديم الذي يصفونه بأنه "عهد بين الله وإسرائيل". وهذا النموذج وضعت في ضوئه العقود والمواثيق التي أسس البيوريتانيون من خلالها تجمعاتهم السكانية والكنسية، واعتبروا أنفسهم شعباً خاصاً مختاراً، وأن أمريكا هي "الأرض الموعودة". ورأوا أن النجاح في الدنيا هو "برهان على الخلاص"، وأن نجاحهم هو علامة على أن الله راض عنهم، وأن من يخالفهم في العقيدة يجب عدم التسامح تجاهه، مما دفع البعض للمغادرة إلى أماكن أخرى، فأسس البعض ولاية رود آيلاند كمكان لحرية الأديان، كما هاجر كاثوليك إلى ولاية ماريلاند وصارت ملجأ لهم. وأصبحت بنسلفانيا مقراً لطائفة الكويكرز، وهي طائفة تتبع طريقة بسيطة في العيش وترفض المشاركة في الحروب، ومنها ظهرت طائفة الأمش.

ومع حلول منتصف القرن الثامن عشر، أخذت أقوام كثيرة من البروتستانت الأوربيين بالهجرة إلى أمريكا، فجاء اللوثريون وأتباع كالفين من السويد وفرنسا وازدهرت كنيسة الإصلاح الهولندية في نيويورك ونيوجرسي. ومع مرور الوقت أخذت هذه الكنائس البروتستانتية يؤثر بعضها في بعض، متأثرة بأفكار وأعمال جون لوك (1632 ـ 1704) حول "العقد الاجتماعي" بين أفراد الشعب الحر. وعلى أساس هذه النظرية الاجتماعية تأسست الأمة الأمريكية، واستمرت سيطرة الكنائس البروتستانتية بوضعها المميز في أكبر عدد من الولايات.

وفي السنوات الأولى من تأسيس أمريكا، كان الأمريكيون واثقين من أن "الله يدعم تجربتهم في الديمقراطية"، وبخاصة بعد أن هزموا بريطانيا وحققوا الاستقلال، واقتنعوا بأن لأمريكا "مهمة سماوية" لتحقيق مزيج فريد من الحرية السياسية والنمو، وتعامل الجميع على قدم المساواة.

عند اندلاع الحرب الأهلية، هاجر إلى أمريكا أكثر من مليون كاثوليكي أيرلندي بسبب المجاعة، وكان معظمهم من العمال. وبسبب الصراع الكاثوليكي ـ البروتستانتي فقد قاوم البروتستانت المهاجرين الجدد، واندلعت نزاعات غوغائية كثيرة وأعمال شغب وبخاصة في فيلادلفيا عام 1844، كما امتد التعامل إلى أنواع من التمييز ضدهم.

وتمثل الطوائف البيوريتانية أكثر أشكال البروتستانتية تطرفاً، وقد غالت في الإيمان والإجلال للعهد القديم، وآمنت بأن اليهود هم خلفاء للعبرانيين القدامى، وحملت في أعماقها نوعاً من حب الخير لليهودية، رغم أن معلوماتها عن الحياة اليهودية كانت ضحلة للغاية، وبخاصة أن بريطانيا كانت خالية من اليهود، إثر إبعادهم رسمياً عنها في نهاية القرن الثالث عشر وحتى القرن السادس عشر.

وكان البيوريتانيون وهم يتعاطفون مع اليهود، منطلقين مما عانوه من اضطهاد كاثوليكي قاس، ووجدوا في العهد القديم حياة يهودية تنطبق عليهم، فدفعتهم إلى تمثل تجربة الصراع والنفي والاضطهاد الواردة في العهد القديم. وانتشرت بينهم التأويلات التوراتية الجدلية، ومعظمها تأويلات شخصية لا تلتزم بسيادة تفسيرات البابا أو الكنيسة، وأخذوا يستشهدون بالعهد القديم لدعم أفكارهم السياسية، وصار أدبهم وغذاءهم

الروحي والفكري والفلسفي وحجتهم القانونية، واعتبر بعضهم اللغة العبرية هي لغة الصلاة، وصار يعتمد بعضهم العادات اليهودية ومواعظ العهد القديم بدلاً من المبادئ الخلقية المسيحية. ومن أبرز شخصيات البيوريتان أوليفر كرومويل والشاعر البارز جون ملتون.

وهكذا كان المهاجرون الأوائل إلى أمريكا طوال القرن السابع عشر من البروتستانت ولاسيما من البيوريتانيين، الذين حملوا معهم التقاليد والاقتناعات التوراتية، وتحولت لديهم هذه العقيدة اللاهوتية إلى أيديولوجية سياسية. وكانوا يتحدثون العبرية بسهولة، وأعطوا أبناءهم أسماء من القصص التوراتية مثل سارة، العازار، أبراهام، ديفيد، وأسماء لمدنهم مثل حبرون، بيت لحم، جيروسالم، صهيون، سالم، كنعان. وكان الخطاب الصهيوني متغلغلاً تماماً في وجدانهم.

وكان أول كتاب ينشر في العالم الجديد يهودي الاسم وهو ترجمة مباشرة للكتاب التوراتي **سفر المزامير**.

ودخلت التوراة ومعها الدراسات اليهودية إلى برامج المدارس والجامعات. ومما يذكر أن جامعة هارفارد التي أسست عام 1636، كانت اللغة العبرية فيها إجبارية، بل إن عنوان أول أطروحة أكاديمية فيها كانت تحت اسم **العبرية هي اللسان الأم** [17].

واعتبر البيوريتانيون أنفسهم "أبناء إسرائيل"، واحتفلوا بيوم السبت باعتباره يوم راحة لهم، وهو من الأيام المقدسة عند اليهود، وقد اتخذوه يوم راحة وعبادة، ولا تجوز ممارسة أي عمل فيه، وفقاً لما ورد في "سفر الخروج" «بارك الرب يوم السبت وقدسه»، وقد تكرر ذكر هذا اليوم في

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

أكثر من موقع وسفر، في حين أن المسيحية التقليدية ترفض الاعتراف بقدسية يوم السبت، وفقاً لما جاء في إنجيل لوقا، وجعلت يوم الأحد يوماً للراحة بدلاً من يوم السبت. لكن المهاجرين البيوريتانيين البروتستانت كانوا مؤمنين بحرفية العهد القديم وبأنه المصدر الوحيد للمعرفة التاريخية وبأنه المعصوم من الخطأ.

ورأى هؤلاء المهاجرون في أمريكا "كنعان الجديدة"، وكانت مطاردتهم للهنود الحمر مشابهة لمطاردة العبرانيين القدماء للكنعانيين في فلسطين، وكانت المواعظ الدينية خلال الحرب الأهلية الأمريكية تشبه الشعب الأمريكي باليهود الذين سعوا لدخول الأرض الموعودة، واستخدم قساوسة وساسة في أواخر القرن التاسع عشر عبارة "الشعب المختار"، في إشارة إلى أن العنصر الأنجلوسكسوني قد اختاره الله لتحضير العالم! [18]

وتبدو العبرنة واضحة من خلال خطب وتعبيرات أمريكية، إلى درجة أدت إلى أن يقوم ثالث رئيس أمريكي وهو جيفرسون عام 1802 باقتراح «أن يُمثل رمز أمريكا على شكل أبناء إسرائيل، تقودهم في النهار غيمة، وفي الليل عمود من النار، بدلاً من النسر» [19]، ويتفق هذا الاقتراح مع النص الوارد في سفر الخروج (13 : 21) والذي يقول: «وكان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم».

وفي عام 1818 طالب الرئيس الأمريكي جون آدمز «بأن يصبح اليهود أمة مستقلة»، هذا في وقت لم يزد فيه عدد اليهود على أربعة آلاف، ولم يكن هناك لوبي يهودي، وهو ما يدل على أن النزعة الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية أصيلة متجذرة، إضافة إلى أن كل مجتمع

استيطاني يمكنه التعاطف مع التجربة الصهيونية الاستيطانية بسهولة، على حد قول عبدالوهاب المسيري في **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**.

وهناك نماذج لا حصر لها من أوائل الحركة الصهيونية المسيحية في أمريكا؛ رجال دين ورحالة وأثرياء وأدباء وساسة وقضاة، وقد مارسوا الضغط المؤسسي والمنظم لمصلحة أهداف الصهيونية السياسية، وأثاروا خيال مسيحيي الغرب الأمريكي، وعمقوا مشاعرهم نحو قصص العهد القديم وأحداثه في فلسطين.

هناك مثلاً أول قنصل أمريكي في القدس عام 1852، كان رجل دين مسيحي تحول إلى اليهودية، وأنشأ مستوطنة زراعية، وكان نشاطه منصباً على «إعادة تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين».

وهناك وليم بلاكستون (1841-1935) الذي نشر كتابه **المسيح قادم** في نهاية القرن التاسع عشر، وترجم إلى أكثر من 48 لغة، واعتبر أكثر الكتب انتشاراً في القرن، وأعلن مؤتمر اتحاد الصهاينة الأمريكيين في فيلادلفيا أن بلاكستون هو (أبو الصهيونية)، وهو لقب تستخدمه بعض المراجع للإشارة إلى الرئيس ولسون أيضاً.

وقد أسس بلاكستون أول جماعة ضغط منظمة (Lobby) لمصلحة الصهيونية في شيكاجو عام 1887، ومازالت تعمل حتى يومنا هذا تحت اسم "الزمالة اليسوعية الأمريكية"[20].

وقاد بلاكستون عام 1891 حملة للتوقيع على عريضة لتأييد دولة يهودية في فلسطين، وقد وقع عليها 413 شخصية أمريكية، من بينهم رئيس مجلس النواب وقضاة وحكام ورجال دين وصحفيون وأعضاء في

الكونجرس ورجال أعمال، وقد أثارت هذه العريضة من المناقشات والاهتمام أكثر مما أثاره كتاب هيرتزل عن الدولة اليهودية فيما بعد. وكانت أول وثيقة مسيحية وضعت أمام صانع القرار الأمريكي برنامجاً واضحاً للتعامل مع مسألة الوطن اليهودي في فلسطين[21].

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من اليهود الأمريكيين البارزين رفضوا توقيع هذه العروض، وكانت الجماعات اليهودية ترى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي فلسطينهم، وأن نيويورك هي قدسهم، وأنهم ليسوا أمة بل جماعة دينية.

واليوم، يوجد داخل ضريح هيرتزل في القدس نسخة من "العهد القديم" مهداة من بلاكستون إلى هيرتزل، وفيه علامات وخطوط تحت النصوص التي تشير إلى استعادة اليهود فلسطين. وقد عملت إسرائيل على زرع غابة باسمه تقديراً لذكراه[22].

هذه الصهيونية المسيحية أفرزت مناخاً وبيئة صالحة لنمو التعاطف فيما بعد مع مسألة الوطن القومي لليهود في فلسطين. وبرز سفراء وقناصل في القدس والأستانة مارسوا نفوذهم في هذا الاتجاه، ودعموا هجرة يهود أوربا إلى فلسطين.

وعلى صعيد ترجمة هذا الإيمان الصهيوني غير اليهودي إلى مؤسسات ومنظمات، ظهرت خلال النصف الأول من القرن العشرين عدة منظمات ولجان ومؤسسات مسيحية، تعبئ الرأي العام وتمارس الضغط على صناع القرار، كما عقدت العشرات من المؤتمرات، وأصدرت المئات من الكتب.

وضمت هذه النشاطات شخصيات أمريكية بارزة في شتى المجالات، ولعبت الحركة الصهيونية اليهودية دوراً في تمويل هذه الأنشطة، حيث

كانت تستشعر الحاجة إلى وجود هذا الضغط المسيحي البروتستانتي على الإدارات الأمريكية، لمصلحة تأسيس إسرائيل، ودعم الهجرة إلى فلسطين.

ومن الأمثلة على هذه اللجان والمنظمات الصهيونية المسيحية في النصف الأول من القرن العشرين "اللجنة الفلسطينية الأمريكية" التي تأسست عام 1933، ورأسها في عام 1942 زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، وضمت 68 شيخاً و200 نائب ومئات من رجال الدين. وقد بعثت اللجنة إلى الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت برسالة قبل سفره إلى مؤتمر يالطا عام 1944 تقول فيها: «إننا ننظر إليك كأنك موسى المعاصر، وننتظر منك نتائج تتعلق بدولة لليهود في فلسطين»[23].

وهناك أيضاً "المجلس المسيحي لفلسطين" الذي تأسس في عام 1942 وهدفه تنفيذ وعد بلفور، وممارسة ضغوط على الكونجرس من أجل قروض ومعونات أمريكية لإسرائيل في سنواتها الأولى.

وقد اندمجت المنظمتان في عام 1946 في منظمة جديدة عرفت باسم "لجنة فلسطين المسيحية الأمريكية"، وبهذا الاندماج تم مزج السياسة بالدين داخل إطار الصهيونية المسيحية، والتي انصب اهتمامها على العمل لإعادة "اليهود إلى الأرض الموعودة" وإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، تمهيداً للخلاص وعودة المسيح الثانية.

2. الصهيونية المسيحية بعد قيام إسرائيل

مع قيام إسرائيل بدأت مرحلة متطورة في حركة الصهيونية المسيحية، وفي أساليب تفاعلها مع المجتمع، وفي مواقفها السياسية تجاه الدولة العبرية في فلسطين. وأخذت الصهيونية المسيحية تتمتع ببعث جديد

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

وانتشرت أفكارها بسرعة كبيرة في الأوساط البروتستانتية الأصولية في أمريكا. ورأت في قيام "إسرائيل" تحقيقاً "للنبوءة التوراتية" في العصر الحديث، واعتبرت أن هذا «أعظم حدث في التاريخ الحديث»، وأنه يأتي في إطار ما سمّوه "الخطة الإلهية" المرسومة لنهاية العالم، وحلول مملكة الألف عام السعيدة بعد العودة الثانية للمسيح[24].

ونظرت الصهيونية المسيحية إلى إسرائيل من حيث هي حدث وإشارة تؤكد معتقداتها اللاهوتية، وصار المؤمن بهذه المعتقدات يرى في دعم وحماية إسرائيل تعجيلاً وتسريعاً ليوم الخلاص بعودة المسيح. وبدلاً من تنصير الإسرائيليين، انصبت جهود الصهيونية المسيحية بعد قيام إسرائيل على تحقيق الأهداف التالية:

1. تأكيد شرعية إسرائيل، على أساس أنها جاءت تحقيقاً للنبوءات التوراتية.
2. دعم حق إسرائيل في فلسطين، كل فلسطين، من حيث هي أرض موعودة من الإله.
3. طمأنة إسرائيل إلى أن الحركة المسيحية الأصولية بكنائسها المختلفة ملتزمة بالعمل في الساحة الأمريكية وخارجها من أجل أمن إسرائيل.
4. تأكيد أن الله «يبارك من يبارك إسرائيل ويلعن لاعنها». وهو النص المأخوذ من سفر التكوين (12: 3) والذي يقول: إن الرب قال لإبراهيم: «أبارك مباركك وألعن لاعنك»، وفي مكان آخر من سفر التكوين (13: 16): «أعطي لك الأرض (أي فلسطين)، ولنسلك إلى الأبد». وفي إصحاح آخر: «أعطيك هذه الأرض لترثها»، «ولنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

وعادة ما تفسر الحركة الصهيونية المسيحية هذه النصوص بأنها "عهد إلهي"، وأن هذا "العهد/ العقد الإلهي" مع بني إسرائيل هو «دون شروط، وإلى الأبد»!

وهنا نستطيع أن نصل إلى عدد من الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذه المعتقدات الصهيونية التي سادت طوال القرون الأربعة الأخيرة في أجزاء كبيرة من بلدان الغرب الأوربي والأمريكي.

لقد حققت الصهيونية المسيحية عدداً من الإسهامات في خدمة المشروع الصهيوني من بينها ما يأتي:

1. وفرت للفكر الصهيوني اليهودي، صياغات أساسية جاهزة، وبيئة ثقافية ووجدانية مواتية للحركة والتعبئة والمساندة.

2. وضعت الأساس لحل ما يسمى بالمسألة اليهودية في الحضارة الغربية، وبما يخدم الحل الاستعماري الغربي.

3. أثرت في رؤية اليهود لفلسطين، وأسهمت في تحويل المفاهيم الدينية المجازية إلى مفاهيم استيطانية إحلالية.

4. حوّلت فلسطين وسكانها العرب إلى مكان خارج التاريخ، بحيث تبدو أرضاً خالية تنتظر شعباً لا أرض له "منفياً" في الخارج، ومن الضرورات المصلحية والدينية "إعادته" إلى أرضه الموعودة له من الإله!

5. خلقت المناخ السياسي المناسب لرؤية الأهمية الجيوسياسية لفلسطين في الوجدان الغربي الرسمي والشعبي.

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

6. أفرزت ثقافة، وشكلت وجداناً ومؤسسات، خرجت من حاضنتها نخب سياسية وثقافية وأدبية وإعلامية ورجال أعمال، امتزجت لديها اقتناعات دينية وعلمانية، متجهة نحو دعم ومساندة هجرة اليهود إلى فلسطين والاستيطان فيها، وتأسيس دولة على حساب السكان الأصليين وحقوقهم المشروعة.

7. أدى تبني القصص والروايات التوراتية إلى سيطرتها على ثقافة قطاع غربي كبير، وتعامل معها معاملة الحقائق الثابتة، وانطلق منها في تفسير أي ظاهرة تاريخية أو قيمة أثرية تم العثور عليها، إلى درجة أن ظهر تاريخ الشرق الأوسط من خلال العيون الأوربية التي وضعته خلال القرنين الماضيين وكأنه تاريخ تابع "للعهد القديم".

وتراني في نهاية هذه الاستنتاجات أتفق تماماً مع ما قالته المؤرخة بربارة تشمان (Barbara W. Tuchman) في كتابها **السيف والإنجيل** (*Bible & Sword*) الصادر عام 1984: «لو لم تُزوّد المسيحية بالأصل وأسُس الارتباط اليهودي بالأرض المقدسة (فلسطين)... لما قامت إسرائيل».

ومما تجدر الإشارة إليه، أن هذا الكتاب قالت عنه صحيفة **نيويورك تايمز** والقول موجود في صدر صفحات الكتاب: «إن نائب الرئيس مونديل، بعد أن قرأه ووجده مدهشاً للغاية، ونافعاً كخلفية لأزمة الشرق الأوسط قدمه إلى الرئيس الأمريكي ريجان قائلاً: هذا هو الكتاب الذي يجب أن تقرأه».

3. الصهيونية العلمانية الملتبسة

عند تأسيس إسرائيل شعر قادة الحركة الصهيونية المسيحية بشيء من القلق، حينما علموا أن بعض قادة إسرائيل المؤسسين كانوا علمانيين،

وأنهم أعضاء في حزب العمل ذي الروابط الوثيقة مع الاشتراكية الدولية، المرفوضة من قبل الكنائس الأمريكية. إلا أن قادة الصهيونية المسيحية سرعان ما تجاوزوا هذه الإشكالية، نحو إمكانية تنصير اليهود فور عودة المسيح الثانية، «وإلا، فإن مصير اليهود هو الهلاك»[25]، أي أن الجماعات اليهودية هي مجرد أداة للخلاص، وليس غير ذلك، ومن ثم يجب الحفاظ عليها وجمعها في فلسطين، للقيام بالدور المرسوم في الدراما الدينية المسيحية الكونية. ومن الواضح أن هذا التبرير لا يختلف عن الفكرة التي كانت سائدة في الغرب خلال القرون الوسطى، باعتبار أن اليهود هم مجرد جماعة وظيفية تجارية، يتم قبولها أو رفضها أو استجلابها أو حمايتها، من أجل أن تقوم بنفع معين أو وظيفة محددة. ومن المدهش أن قادة الصهيونية اليهودية، استخدموا في خطابهم السياسي المعنى النفعي نفسه، فالدولة العبرية هي "قاعدة للغرب"، يفوق نفعها كل ما تحصل عليه من معونات أمريكية، وهي "حاملة طائرات أمريكية" على حد قول أكثر من زعيم سياسي إسرائيلي.

لكن العلمانية عند الحرس الصهيوني اليهودي القديم شيء مختلف عما عرفه الغرب من علمانية؛ فالعلمانية عند بن جوريون مثلاً، تختلط فيها الدبابة مع التوراة، ويرى أن «خير مفسر ومعلق على العهد القديم هو الجيش». ولم يكن أمام قادة إسرائيل عند قيامها لتحقيق استقرار مجتمع المهاجرين إلا العمل من خلال التنظيمات الاقتصادية الجماعية، التي تتشابه مع التعاونيات الاشتراكية السائدة آنذاك، أو ما تمكن تسميته بالاقتصاد الاستيطاني، في ظل أيديولوجية استيطانية ذات طابع عمالي يساري. ولعل "الكيبوتسات" وتعني المستوطنة التعاونية، هي أبرز صور المؤسسات الصهيونية العلمانية، لكن طبيعتها الاستيطانية والاستيعابية

وكونها معمل التفريخ للجيش الإسرائيلي وحروبه الكثيرة، تلتقي تماماً مع المؤسسات الدينية اليهودية على ضرورة الاستيطان في فلسطين، وعلى الإيمان «بالرسالة الإلهية التي تحمل في طياتها عودة ما يسمى مملكة إسرائيل التاريخية».

ولاشك في أن قادة الصهيونية المسيحية أدركوا فيما بعد، أنه لا حدود فاصلة بين العلماني اليهودي والمتدين اليهودي في مجتمع الاستيطان في فلسطين؛ فحلم إقامة الدولة وضمان وجودها فيما يسمى بأرض الأجداد هو حلم مشترك.

وقد ضم الخطاب الصهيوني جملة من الأيديولوجيات المتناقضة والملتبسة، من دينية وغير دينية وعلمانية، وفتح الأبواب أمام جميع الاتجاهات، بشكل يؤمن فيه الجميع بأن العالم هو "منفى" لليهود، وأن اليهود يشكلون "شعباً عضوياً واحداً"، لابد من أن يُنقل من المنفى إلى فلسطين "أرض الميعاد". وعلى سبيل المثال فإن الصهيونية العلمانية اعتبرت أن الهدف من "نقل اليهود" هو تحقيق الهوية اليهودية، وتأسيس دولة يهودية ديمقراطية علمانية في فلسطين، والتي هي "أرض الميعاد" أيضاً، وفيها خلاص الشعب وخلاص الأرض، وهذا الخلاص "عند المتدينين اليهود" هو مشيئة الإله. أما آليات "نقل" اليهود أو "إعادتهم" فتتم على النحو الآتي: تؤمن الصهيونية السياسية بأن النقل هو تنفيذ لوعد بلفور، أما الصهيونية الدينية فتؤمن بأن "النقل" يتم تنفيذاً "للوعد الإلهي"، في حين تؤمن "الصهيونية التصحيحية" بأن "استعادة الأرض الموعودة" تمت من خلال القوة اليهودية الذاتية. وكل الاتجاهات تلتقي عند مقولة «نحن أبناء إسحاق ويعقوب، وكلنا مقدسون سواء كنا مؤمنين أو

ملحدين، ونتوارث هذه القداسة». وهكذا نجحت الصهيونية في "علمنة المفاهيم الدينية" و"عبرنة المفاهيم الدنيوية".

أما الصهاينة غير اليهود فقد صار عندهم الالتزام الأخلاقي (Moral Commitment) لدعم إسرائيل التزاماً ثابتاً ودائماً، وليس مجرد التزام سياسي تحكمه مقتضيات المصلحة الوطنية الأمريكية أو تغيرات اللعبة الدولية، واعتبروا شرعية "إسرائيل" وسياساتها التوسعية تحقيقاً للنبوءات التوراتية، "وأرض إسرائيل" لم تعد تقف عند حدود التقسيم عام 1949 ولا حتى عند حدود عام 1967، وصار يتعين على السياسي ورجل القضاء والإعلامي ورجل الأعمال ورجل الدين وغيرهم، تقديم العون والمساندة المادية والمعنوية لإسرائيل، تحقيقاً للشعار القائل بأن «الله يبارك إسرائيل ويلعن لاعنها». وحينما يتعارض القرار الإسرائيلي مع الشرعية الدولية، وقرارات المجتمع الدولي والمواثيق الدولية، فإن «الموقف الإسرائيلي هو الذي يجب الدفاع عنه»[26]. وقد عبر سفير إسرائيلي سابق في الأمم المتحدة أمام مؤتمر صهيوني مسيحي في واشنطن في شباط/ فبراير 1985، عن تقدير إسرائيل للدعم الصهيوني المسيحي ودور الصهيونية المسيحية في إنشاء دولة لليهود بالقول: «هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهودية للعودة إلى أرض إسرائيل، هذا الحلم الذي يراودنا منذ ألفي سنة، تفجر من خلال المسيحيين الصهاينة الذين عملوا على تحويل الأسطورة الجميلة إلى دولة يهودية»[27].

4. حرب حزيران/يونيو 1967: معركة بين الخير والشر!

شكل انتصار إسرائيل في حرب حزيران/ يونيو 1967 واحتلالها مدينة القدس كاملة، نقطة تحول مهمة في تعميق الاتجاهات الصهيونية في الحركة

المسيحية الأصولية، وتوثيق علاقات تعاون بينها وبين المنظمات الصهيونية اليهودية من جهة، وبينها وبين إسرائيل من جهة أخرى.

ورأت الصهيونية المسيحية في هذا الانتصار إشارة إلى اقتراب نهاية الأزمنة، «وأنه أعطى دارس التوراة إيماناً عميقاً بصحة التوراة وصلاحيتها»، وشكل هذا النصر بعثاً جديداً لهذه الحركة، واعتبرت أن «القدس بأيدي اليهود ستكون المدينة التي سيحكم المسيح العالم منها». وبدلاً من البحث عن تنصير اليهود، صارت الحركة المسيحية الأصولية أكثر التزاماً بحشد جهودها لتحقيق شرعية الدولة اليهودية بعد توسعها، وصار من الضروري لديها الإعداد للخطوة الأخيرة في هذا السيناريو الديني، وهي إعادة بناء المعبد القديم فوق موقعه التاريخي القديم. (من هنا نفهم لماذا قام دينيس مايكل روهان وهو شاب مسيحي أصولي من أستراليا ينتمي إلى كنيسة "الرب"، وليس يهودياً كما هو شائع في أدبياتنا، باقتحام المسجد الأقصى وإحراق منبر صلاح الدين في عام 1969).

ونشطت الحركة منذ السبعينيات في الضغط على الحكومة الأمريكية من أجل هجرة اليهود السوفييت، واعتبار "اللاسامية هي ضد المسيحية"، وتبنت بالكامل كل طموحات إسرائيل وسياساتها، في الهيمنة والتوسع والاستيطان والعدوان.

ولم تعد إسرائيل مجرد اصطلاح سياسي، بل أضحت أيضاً رمزاً خطابياً دينياً.

ولاشك في أن انتصار إسرائيل في حرب حزيران/ يونيو 1967، واحتلال إسرائيل للقدس كاملة، قدما للصهيونية المسيحية مبررات لاهوتية كافية للانتعاش والانتشار والتأثير في المجتمع، ورأت في هذا الانتصار

أهمية أكثر من تأسيس الدولة اليهودية، وإشارة ساطعة إلى صحة تأويلاتها الحرفية للنصوص الدينية، وما تدعيه من نبوءات توراتية، ومؤشرات «لاقتراب نهاية الأزمنة»[28]. ونظرت الصهيونية المسيحية إلى مسألة احتلال القدس وسيطرة اليهود عليها، باعتبارها "الخطوة قبل الأخيرة" لمجيء المسيح ثانية، إذ إن الخطوة الأخيرة عندها هي «إعادة بناء الهيكل فوق موقعه التاريخي القديم، وهو المكان نفسه الذي تقوم عليه الآن قبة الصخرة»[29].

وقيّمت الصهيونية المسيحية حرب حزيران/ يونيو 1967 على أنها معركة بين "الخير والشر"، وصوّرت إسرائيل بوصفها قوة صغيرة وضعيفة، ومهددة من قبل قوى عربية كبيرة من كل جانب. وارتفعت صيحات القيادات الصهيونية والمسيحية تهاجم «صمت المسيحيين عن المجزرة المتوقعة لليهود على أيدي العرب... وأن المسيحية تكرر صمتها، ليفعل العرب باليهود ما فعلته النازية بهم في الحرب العالمية الثانية»[30].

وأخذت منظمات الصهيونية المسيحية وحركاتها تصعد أنشطتها باتجاه التضامن مع يهود الاتحاد السوفيتي، وتمارس ضغوطاً على الكونجرس والإدارات الأمريكية المتعاقبة. وشكلت عدة كنائس كاثوليكية وبروتستانتية منظمات لهذا الغرض مثل (Task Force on Soviet Jewry)، وصارت المنظمات اليهودية الأمريكية حريصة على المشاركة في اجتماعات المنظمات والكنائس الصهيونية المسيحية، ووجد اليهود الأمريكيون أن «المجتمع المسيحي في معظمه صديق لإسرائيل»[31]، وتراجعت الكنائس عن الاهتمام بمسائل تنصير اليهود، باعتبار أن هذا الأمر مؤجل إلى حين اكتمال النبوءات التوراتية بقيام حكم المسيح الذي سيمتد ألف عام، وصارت هذه الكنائس الأصولية أكثر التزاماً بتوفير جهودها لتحقيق

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

«شرعية الدولة اليهودية، وحق اليهود في إسرائيل، بما في ذلك الضفة الغربية من فلسطين»[32]، وتأييد مطالب إسرائيل باعتبار «القدس عاصمة أبدية موحدة تحت الحكم الإسرائيلي»، وممارسة الضغوط السياسية في هذا الاتجاه، واستغلال المواسم الانتخابية - وما أكثرها - لإثارة مسألة القدس بوصفها عاصمة لإسرائيل.

وقد التقطت إسرائيل هذه الإشارات المسيحية، ودعت قيادات كنسية أمريكية لزيارة إسرائيل في مطلع السبعينيات. وعادت هذه القيادات لتعلن «أنها حصلت على ضمانات باحترام إسرائيل للحرية الدينية المسيحية، وحرية البعثات التبشيرية لبث آرائها»[33]. وكان لهذا الإعلان تأثيرات بالغة في المجتمع الكنسي الأمريكي، لكن أي فحص موضوعي لقضيتي حرية الاعتقاد والتبشير بالمسيحية في المجتمع الإسرائيلي، يبين أن القوانين الإسرائيلية تحرم التنصير، وقد وصلت الحساسية المفرطة لدى الإسرائيليين تجاه هذا الأمر إلى أن الحكومة الإسرائيلية لا تستخدم الرمز العالمي المتعارف عليه دولياً في كتب الرياضيات وهو الزائد (+) لأنه يذكرها بالصلب والصليب، واستعاضت عنه بحرف تي (T) في الكتب المدرسية اليهودية.

وفي كل الأحوال، شهدت مرحلة ما بعد انتصار إسرائيل في حرب حزيران/ يونيو 1967 نهوضاً واسعاً في تنظيمات الصهيونية المسيحية ونشاطاتها وفكرها وعلى شتى الصعد. وصار الكثيرون من أتباع كنائس هذه الصهيونية، ينظرون إلى ما اصطلح على تسميته بالشرق الأوسط والصراع العربي-الإسرائيلي، من حيث هو انعكاس للأحداث التي صورها كتبة العهد القديم، وأصبحت "إسرائيل" الدولة قضية القضايا في برامج هذه الكنائس والتنظيمات، وصار ازدهار الشعب اليهودي وانتصاراته العسكرية المعجزة، حسب اعتقاد القيادات المسيحية، مؤشراً

لبداية النصر النهائي على قوى الشر، والمجيء الثاني للمسيح. وبشكل عام، فإن مضمون نشاط الصهيونية المسيحية المعاصرة وخطابها وفكرها أصبح يتمحور حول تأمين "إسرائيل" تنفيذاً لمشيئة الإله. ويقول أحد قادة الصهيونية المسيحية من خلال شبكته الدينية المرئية والمسموعة: «يجب على كل أمريكي بذل كل جهد ممكن لضمان الدعم الكامل لإسرائيل»، ويؤكد «أن الرب يحب اليهود، ويتعامل مع الأمم وفق تعاملها مع إسرائيل»[34].

وقد شكل هذا النهوض الصهيوني المسيحي انعطافة رئيسية في التوجهات السياسية الأمريكية تجاه قضية فلسطين، وفتح الباب أمام موجة قوية من التغيرات، من بينها صعود اليمين الجديد إلى الحلبة السياسية، وصار الالتزام اللاهوتي والثقافي والسياسي بدعم إسرائيل والانحياز الأعمى إليها، مسألة لا يجوز النقاش فيها، وبخاصة بعد أن تحالفت أو اختلطت قوى الصهيونية المسيحية مع اليمين السياسي، وامتلكت وسائل إعلامية وتعليمية وسياسية متطورة، واستحوذت على ربع القوة الانتخابية، أي حوالي عشرة أضعاف الأصوات اليهودية[35].

ثالثاً: عوامل الإحياء الصهيوني المسيحي المعاصر

شكلت السبعينيات من القرن العشرين بداية نهوض جديد للصهيونية المسيحية، وسجلت حماساً وتأييداً وتأثيراً واسعاً لها في المجتمع، وعملت على إنشاء مئات من التنظيمات والمؤسسات الإعلامية والتعليمية والخيرية والدعائية والاجتماعية التابعة لها. إلى درجة أن أطلقت صحف أمريكية عديدة على عام 1967 اسم "عام الإنجيليين الأصوليين".

وقد ساهمت عوامل كثيرة في نهوض وبروز تنظيمات الصهيونية المسيحية وتزايد تأثيرها في المجتمع، واحتلت "إسرائيل" موقعاً متميزاً في

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

نشاطاتها ودعمها. وشكلت اهتماماً دينياً قوياً مرتبطاً بفكر وعقائد هذه التنظيمات، وبإيمانها بدور لليهود في الخلاص. وأخذت إسرائيل تحصد مكاسب سياسية ومالية غير مسبوقة داخل الإدارات الأمريكية والكونجرس الأمريكي، بفضل دعم وضغوط هذه القوى الصهيونية المسيحية الصاعدة، والتي ترى أن إسرائيل هي فوق القانون الدولي، وأن عليها أن تقرر لنفسها ما هو قانوني وما هو أخلاقي، وأنها بحاجة إلى مزيد من السلاح ومزيد من القنابل لتحقيق أهدافها بالقوة العسكرية[36]، وأنه يتعين على الولايات المتحدة الأمريكية أن تقدم لإسرائيل كل ما تريده، «لأن الله يريد منا أن نفعل ذلك»[37].

وقد توجت سبعينيات القرن العشرين، بوصول رئيس أمريكي إلى البيت الأبيض يعلن أنه ولد ثانية بصفته مسيحياً، ويتحدث عن إيمانه بالصهيونية المسيحية في بيانه الانتخابي قائلاً: «إن تأسيس إسرائيل المعاصرة هو تحقيق للنبوءة التوراتية». ولعل أبرز عوامل هذا النهوض أو الإحياء الأصولي الصهيوني المسيحي ما هو آت:

1. احتلال إسرائيل مدينة القدس

أعطت سيطرة اليهود على مدينة القدس كاملة عقب حرب حزيران/ يونيو 1967 زخماً قوياً للصهيونية المسيحية، واعتبرت هذه السيطرة أكثر أهمية من قيام إسرائيل، وعلامة أكيدة على قرب مجيء المسيح ثانية. وأسهمت مسألة القدس في توليد عدد هائل من المنظمات وإنتاج الأفلام ونشر الكتب وإعداد البرامج التعليمية والإعلامية التي تصب نشاطاتها في خدمة السياسات الإسرائيلية، وتوفير الدفاعات القوية لها، وتطوير المواقف السياسية الأمريكية، رسمياً وشعبياً، بجانب إسرائيل. باعتبار أن «الله هو الذي حدد حدود إسرائيل وأيّد مطالبها في

الأرض؛ لأن لليهود حقاً تاريخياً ولاهوتياً وقانونياً في فلسطين» وفقاً لبرنامج أحد أبرز نجوم الصهيونية المسيحية في المجتمع الأمريكي، وهو القس جيري فولويل (J. Falwell). وقد أسس هذا القس والواعظ التلفزيوني منظمة تسمى "الأغلبية الأخلاقية" عام 1979، لنشر الأخلاق المسيحية التقليدية والتعامل مع قضايا المجتمع الاجتماعية، واستهدفت منظمته في مجال السياسة الخارجية محاربة الشيوعية، والوقوف بجانب إسرائيل، واعتبار أن «دعم أمريكا لإسرائيل هو من أجل مصلحة أمريكا نفسها»، وأن «الله يبارك إسرائيل، ويلعن من يلعنها»[38]. وقد وصل عدد أعضاء هذه المنظمة الصهيونية المسيحية إلى حوالي 6.5 ملايين أمريكي في منتصف الثمانينيات[39]، وبنت صلات بريدية وإلكترونية لها مع أكثر من 25 مليون أمريكي، ومارست أساليب "اللوبي" كجماعة ضغط سياسية، وعملت على تعبئة الملايين من الناخبين، للانخراط في النشاط السياسي المؤيد لاتجاهاتها ومرشحيها، وملكت محطات تلفزة فضائية وأخرى إذاعية، كما أسست جامعة اسمها "جامعة الحرية" في مدينة "لينشبرج" التي يتعلم فيها الطلبة علوم اللاهوت من وجهة نظر يهودية، فضلاً عن علوم أخرى كثيرة من بينها التاريخ العبري، وصولاً إلى قيام إسرائيل. كما أنشأت منظمة جيري فولويل مدارس للمرحلتين الابتدائية والثانوية. أما برامجه التلفزيونية فهي تحظى بشعبية واسعة، ويؤكد من خلالها باستمرار دعمه لإسرائيل، معتبراً أن هذا الدعم هو إرضاء لله، ومبني على اعتبارات أخلاقية وروحية وتاريخية.

وبالإضافة إلى هذا القس فقد برزت قيادات كنسية صهيونية كثيرة، من بينهم بيلي جراهام الذي يعلن أن هناك «علاقة خاصة، بين الله والشعب اليهودي في إسرائيل». كما تم إنتاج العديد من الأفلام الصهيونية المسيحية، التي تقوم على فكرة "الأرض الموعودة" للشعب اليهودي.

ونشرت المئات من الكتب التي تتحدث عن "قوة إسرائيل التي ستنتصر على الشر"، ومن هذه الكتب التي بيع منها عدة ملايين من النسخ: كتاب **دراما نهاية الزمن** لمؤلفه أورال روبرتس، الذي يتحدث فيه عن أن «شعب الله القديم يؤسس الآن إمبراطوريته»[40]. وكذلك كتاب هال ليندسي المسمى **كوكب الأرض العظيم الراحل**، وقد باع أكثر من خمسة عشر مليون نسخة منذ نشره لأول مرة في عام 1970، ويركز فيه على مسألة "عودة اليهود إلى أرض إسرائيل بعد آلاف السنين". إضافة إلى فيلم كتبه وأنتجه القس بيلي جراهام باسم **أرض الله** أو (*His Land*) في عام 1975، وقد تم تصويره وتمويله من قبل إسرائيل، وقدم صوراً زاهية عن تأسيس إسرائيل، وتحويلها "الصحراء إلى جنة"، واعتبر النقاد هذا الفيلم أول تفسير عن إنشاء إسرائيل يقدم للأمريكيين، وقد شاهده أكثر من 20 مليون أمريكي، واعتبرته المنظمة الصهيونية "اللجنة اليهودية الأمريكية" «أعظم عمل فني متعاطف مع إسرائيل منذ قيامها»[41].

2. مجيء الرئيس جيمي كارتر إلى البيت الأبيض

شهد المجتمع الأمريكي نزوعاً نحو المسائل الأخلاقية والدينية بعد منتصف السبعينيات، كرد فعل على جملة من الفضائح السياسية والهزائم العسكرية، مثل فضيحة التسجيلات الصوتية المعروفة بـ "ووترجيت"، والتورط في حرب فيتنام، وسقوط الرئيس ريتشارد نيكسون قبل انتهاء مدة ولايته. ونتيجة لهذا النزوع الديني والأخلاقي صوت الشعب الأمريكي للرئيس جيمي كارتر عام 1976، وكما يقول عنه القس بيلي جراهام: «يذهب الرئيس كارتر كل يوم أحد إلى الكنيسة، ويقرأ وزوجته فصولاً من التوراة قبل النوم، ولا يشرب الكحول في البيت الأبيض».

وقد سجل الرئيس كارتر في أثناء فترة ولايته 1976 ـ 1980 إنجازات كبيرة لصالح إسرائيل، وعبَّرت مواقفه عن إيمان لاهوتي بدعم إسرائيل وباعتباره «أن تأسيس إسرائيل المعاصرة هو تحقيق للنبوءات التوراتية»[42]، ودان من يتهم اليهود بقتل المسيح "باللاسامية"، فيكون بموقفه هذا أول رئيس أمريكي يصدر إعلاناً مباشراً في قضية لها جذور دينية وتاريخية تقليدية، كما كان أول رئيس أمريكي يضغط باتجاه فرض قانون أمريكي لمناهضة أنظمة المقاطعة العربية لإسرائيل في عام 1977. وتسلمت إسرائيل في عهده عشرة مليارات دولار، تعادل حوالي نصف ما تسلمته من مساعدات أمريكية منذ تأسيسها حتى تاريخه.

ومما لاشك فيه أن معتقدات الرئيس كارتر الدينية كانت من بين أهم العوامل التي شكلت سياسته الخارجية تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وساهمت في توليد مناخ مشجع لتوقيع اتفاقيات سلام مصرية ـ إسرائيلية في عام 1979، وفتحت الأبواب واسعة أمام نشاط الحركات الصهيونية المسيحية المعاصرة. وطورت العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية حتى صارت في موقع مميز وخاص، يحكمه خطاب مهيمن مبني على ما اصطلح على تسميته بالتراث اليهودي ـ المسيحي المشترك، والقيم والأخلاق والالتزام المعنوي والروحي، وغير ذلك من الإشارات والتعابير والمصطلحات التوراتية التي صار يرددها السياسي والمفكر ورجل الدين والإعلامي... إلخ.

3. وصول مناحيم بيجن إلى رئاسة الوزراء في إسرائيل عام 1977

قام مناحيم بيجن فور انتخابه بزيارة لمستعمرة "غوش إيمونيم" المسماة "إيلون مورية" في الضفة الغربية المحتلة. ودعا، وهو يحمل في يده مخطوطات التوراة، إلى إقامة المزيد من المستوطنات في ما يسمى بأرض

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

إسرائيل الكاملة، وأقسم باسمي والديه إنه مادام رئيساً للوزراء فلن تنسحب إسرائيل من يهودا والسامرة وغزة والجولان[43]. وقد أعطى وجود بيجن في الحكم مشروعية لتوسيع دائرة الغلو الأصولي اليهودي، وأكثر بيجن من استخدام الإشارات والتعابير التوراتية في خطبه ومواقفه، وفتح الأبواب الواسعة أمام انخراط القوى الصهيونية اليهودية الأصولية في العمل السياسي، وشجع قيام علاقات متينة بين إسرائيل والمنظمات الصهيونية المسيحية الأمريكية، وحرص على إقامة علاقات شخصية مع قادة هذه المنظمات والاجتماع بها ودعمها وتشجيعها، ودعوتها إلى عقد مؤتمراتها الدورية أو الطارئة في إسرائيل والتحدث في هذه اللقاءات المسيحية. وفي عام 1978 أعلن «أن إسرائيل قد وعدنا الله بها، ولنا كل الحق فيها». كما تحدث أمام أكثر من 800 من القادة الإنجيليين الصهاينة في المؤتمر الدولي "لسلام القدس" المنعقد في أوائل عام 1978 قائلاً: «لست أخجل من تأسيس حق إسرائيل في الضفة الغربية، على أساس وعود إلهية»[44].

وقد أحيا بيجن هذه الشعارات والأساطير اليهودية، وبخاصة تلك الأساطير التي تدور حول «اختيار الشعب اليهودي، ورسالته وسيادته الإقليمية على أرض إسرائيل». وأسهمت في هذا الإحياء عوامل عدة، من بينها النتائج المذهلة التي حققتها إسرائيل في حرب حزيران/ يونيو 1967، والتي سهلت عملية التعبئة الفاعلة لقوى سياسية واجتماعية ودينية يهودية، وطورت أيديولوجيات الاستيطان الواسع في الأراضي المحتلة. وقد لعب بيجن دوراً رئيسياً في تمتين العلاقات بين الحكم وغلاة الأصولية اليهودية الصهيونية، وتحريك مجمل مجتمع الجماعات اليهودية باتجاه «إتمام عملية الخلاص المسيحانية، التي قضت الإرادة الإلهية بها، والتركيز على بسط السيادة اليهودية على كل أرض إسرائيل»[45].

4. الكنائس المرئية

شهدت السبعينيات بروز الكنيسة المرئية (Electric Church) وقادتها في مجال البرامج الدينية المسيحية المتلفزة، ممن يسمون بإنجيليي التلفزة (T.V. Evangelists)، وانتشرت شبكة هائلة من المحطات المرئية والمسموعة، وملكت عقول الملايين من الأمريكيين وقلوبهم وجيوبهم، وانخرطت برامجها في التعامل مع قضايا اجتماعية وسياسية ولاهوتية وإنسانية وتعليمية متنوعة، وشكلت الاتجاهات الصهيونية الداعمة لإسرائيل والمدافعة عن سياساتها التوسعية والعدوانية والاستيطانية والعنصرية محوراً رئيسياً في كل برامجها؛ وهي برامج استعراضية جماهيرية نجحت في جذب قطاعات واسعة من المجتمع الأمريكي، وبلغت نسبة مشاهديها في منتصف الثمانينيات ما يقارب 40٪ من مشاهدي التلفزة بشكل عام[46]، ولعبت دوراً أساسياً في نشر المد الأصولي الصهيوني وولادة ما سمي بالعمادة من جديد " مسيحيون ولدوا ثانية " . وخاطبت هذه الشبكة التلفزيونية جماهير واسعة من المشاهدين ممن ولدوا ثانية بصفة مسيحيين داخل بيوتهم، بدلاً من دعوات الوعظ في الكنائس، وهو وعظ محدود في تأثيره لا يتجاوز حدود أبنية دور العبادة والأعضاء الملتزمين بالصلاة فيها أيام الآحاد والأعياد والمناسبات الدينية .

واستخدم قادة هذه الكنائس الإلكترونية الأساليب الإعلامية الحوارية الجذابة التي ابتعدت عن نماذج الوعظ المباشر، وانخرطت في قضايا مجتمعية مثيرة للاهتمام؛ كالانتخابات والضرائب والأخلاق والإجهاض ودور الأسرة والحرب النووية، وصولاً إلى الشرق الأوسط ودعم إسرائيل مرضاة للرب!

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

ومن نافلة القول التحدث عن أهمية وتأثير التلفزة ووسائل الإعلام الحديثة في صياغة وتشكيل العادات والفكر والسلوك في المجتمع الأمريكي، وتوضح الدراسات الحديثة أن متوسط ما يقضيه تلاميذ المدارس الثانوية من الوقت أمام شاشة التلفزيون يفوق ما يقضونه في المدرسة، أما البالغون فإنهم يمضون أكثر من نصف وقتهم في مشاهدة محطات التلفزة، كما تعتبر هذه المحطات المصدر الرئيسي لوجهة نظر الأمريكيين عن العالم الخارجي[47] .

وكشفت استطلاعات جالوب أن أكثر من 70 مليون أمريكي يشاهدون محطات الكنائس الإلكترونية، والتي تجاوز عددها الألف والخمسمئة محطة، فضلاً عن مئات المحطات الإذاعية الدينية، وتستخدم هذه الكنائس الأقمار الصناعية وأنظمة " الكابل " المشفرة، وتغطي بذلك مساحة واسعة من الكرة الأرضية . ومن خلال متابعتي الشخصية لبرامج الشبكات الدينية تبين أن مضمون خطابها الأصولي يتمحور حول الدعاوى الصهيونية المسيحية، وبخاصة مسألة دعم إسرائيل وتأمين حدودها وأمنها .

ومن بين قادة هذه الكنائس الإلكترونية ونجومها: جيري فولويل وبات روبرتسون صاحب برنامج «نادي السبعمئة»، والذي يقول عنه إنه أكثر جاذبية من مجلات الجنس وأفلامه، وإن عدد مشاهديه يفوق أعداد قراء مجلتَي **تايم** و**نيوزويك** وصحف **واشنطن بوست** و**نيويورك تايمز** و**لوس أنجلوس تايمز** مجتمعة، وفقاً لما ذكرته صحيفة **نيويورك تايمز** في عددها الصادر يوم 19/ 8/ 1984 .

وبالإضافة إلى الوعظ والإرشاد والدعوة الصهيونية، فإن هذه الكنائس الإلكترونية تتولى عمليات جمع التبرعات لإسرائيل، وتنظم المؤتمرات

والزيارات واللقاءات في إسرائيل، وتمارس الضغط السياسي لصالحها على دوائر القرار الأمريكي، وتظهر إسرائيل في برامج هذه الكنائس المرئية والصوتية في صورة مقدسة لا تجوز مناقشة سياساتها ومسلكها، وتعزز هذه الصورة المقدسة بذرائع ودعاوى سياسية واستراتيجية فضلاً عن تأويلات منتقاة من العهد القديم. ويتمتع قادة هذه الكنائس الإلكترونية بمواهب فذة في علوم الاتصال وفنون الإعلام وفقه اللاهوت، ومعرفة واسعة في متابعة الأحداث السياسية وقضايا المجتمع الساخنة. ويشير استطلاع أجرته مجلة **المسيحية اليوم** بالاشتراك مع معهد جالوب في عام 1980 إلى أن «85٪ من مشاهدي هذه البرامج[48] الكنسية المتلفزة قد تحولوا إلى متدينين بسبب هذه البرامج»، الأمر الذي يفسر قدرة هذه المنظمات الصهيونية المسيحية التلفزيونية في مجال الحركة التنظيمية، وامتلاك ناصية الإعلام وتقنيات الاتصالات المتطورة. وقد وفرت لها إمكانياتها المالية الضخمة - والتي شكلت التبرعات جزءاً رئيسياً منها - فرصة توسيع مدى انتشارها وتقوية نفوذها. ويشير الاستطلاع المذكور إلى أن مواردها السنوية من التبرعات وصلت إلى أكثر من مليار دولار، وإذا ما أضيف إلى هذا المبلغ قيمة الموارد الناتجة عن الإعلانات والاستثمارات الأخرى، فإن الرقم يرتفع إلى ملياري دولار سنوياً[49].

5. اليمين المحافظ الجديد

ومن عوامل الإحياء الرئيسية وصول اليمين السياسي الجديد إلى الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية، مع فوز الرئيس رونالد ريجان اعتباراً من عام 1980. وقد أسس هذا اليمين المحافظ برامجه السياسية والاجتماعية والثقافية على مبادئ دينية، وشكل مع قوى الصهيونية المسيحية تحالفات

وثيقة، وبخاصة مع منظمة "الأغلبية الأخلاقية" (Moral Majority) التي نجحت في تسجيل أكثر من 2.5 مليون ناخب جديد لمصلحة الرئيس ريجان في انتخابات عام 1980[50].

وعملت قوى الصهيونية المسيحية على تأسيس جمعيات ومنظمات ومراكز بحث سياسية، ضمت رجال دين ورجال أعمال ومفكرين وخبراء، من البروتستانت واليهود. وبرزت في هذه المرحلة مؤسسة بحثية يمينية صهيونية هي "مؤسسة التراث" (Heritage Foundation) كان لها تأثيرها البالغ في توجهات وقرارات إدارة الرئيس ريجان والكونجرس، وتركت بصماتها واضحة على السياسات العامة الأمريكية طوال عهد ريجان، وهي سياسات اتسمت بالعدوانية تجاه العالم الثالث والأمم المتحدة واليونسكو والعرب، وصاغت مواقف أمريكا السياسية والدفاعية والتجارية. وقالت صحيفة **واشنطن بوست** في ذكرى مرور عقد على تأسيس مؤسسة التراث إن تأثيرها كان مذهلاً للغاية[51] في دوائر صناع القرارات، ومارست دوراً أساسياً في صياغة سياسات الولايات المتحدة الشرق أوسطية، فهي - على سبيل المثال - ضغطت باتجاه انسحاب الولايات المتحدة من عضوية اليونسكو، والتهديد بالانسحاب من الأمم المتحدة ومنظماتها المتخصصة إذا ما قررت هذه المنظمات طرد إسرائيل من عضويتها، ودافعت عن إسرائيل في إثر غزوها للبنان عام 1982، وقدمت دراسات خاصة إلى أعضاء الكونجرس حول ما أسمته بالإرهاب الفلسطيني وتحديات النفط العربي وتدمير الأوبك... إلخ.

وقد ضمت هذه المؤسسة في أنشطتها ودراساتها ومحاضراتها رموز العمل الصهيوني والفكر المعادي للمسلمين والعرب، من أمثال إدوارد

لوتواك وجين كيركباتريك وصومويل فرانسيس وريتشارد بايبس وولفريد رايت والبروفسور النيوزيلندي كيلي المتخصص في شؤون الخليج العربي، والمؤمن بضرورة إعادة رسم الحدود بين الدول العربية وضم شمال العراق إلى تركيا، وتوطين الفلسطينيين في وادي سرحان بشمال المملكة العربية السعودية، وضم شط العرب إلى إيران.

وتذكر مجلة **تايم** في عددها الصادر في 3/ 12/ 1984 أن إدارة الرئيس ريجان نفذت أكثر من 60٪ من مقترحات "مؤسسة التراث"، ورشحت معظم القيادات للمناصب العليا، وعملت على تنشئة وإعداد جيل جديد من الكوادر اليمينية المحافظة، حتى تظل ما تسميها "ثورة ريجان" مستمرة بعد مغادرته البيت الأبيض[52].

وقد لعبت القوى الصهيونية المسيحية دوراً رئيسياً في صياغة الأبعاد الأيديولوجية والتصورات الفلسفية والأخلاقية لقوى اليمين المحافظ الجديد؛ فالاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت هو "إمبراطورية الشر"، وإسرائيل هي واحة الديمقراطية، وهي محور الارتكاز والاهتمام، وأي نقد لسياساتها هو معاداة للسامية، وهو "الخطيئة الكبرى" و"الخيانة لكل قيم الحضارة الغربية" على حد تعبير المنظر الأيديولوجي نورمان بود هوريتز في مقال له بمجلة **كومنتاري** (بريطانيا: أيلول/ سبتمبر 1982)، وعلى سبيل المثال؛ فقد شبه قادة الحركة اليمينية الصهيونية المسيحية غزو إسرائيل للبنان في صيف عام 1982 «بعملية غزو الحلفاء لفرنسا في الحرب العالمية الثانية» بهدف «تحريرها من النازية».

وبفضل هذا التحالف الوثيق بين قوى الصهيونية المسيحية واليمين المحافظ الجديد في عقد الثمانينيات، قدمت الإدارة الأمريكية لإسرائيل من

المساعدات المالية والعسكرية والفنية والدعم السياسي ما لم تشهده أي حقبة سابقة، وتم في هذه الفترة "مأسسة" العلاقة الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة من خلال توقيع معاهدة التحالف الاستراتيجي، والتي شملت أول اتفاق من نوعه في تاريخها تعقده مع دولة أجنبية، وهو اتفاق منطقة التجارة الحرة، والذي أصبح ساري المفعول اعتباراً من أيلول/ سبتمبر 1985. كما تم في آخر يوم في ولاية ريجان اتخاذ قرار من قبل الكونجرس بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، وصارت في عهده محاضر الكونجرس مماثلة لمحاضر الكنيست.

ومن الواضح أن أقوال الرئيس الأمريكي ريجان وأفعاله، تعكس مدى إيمانه بدعاوى الصهيونية المسيحية، ولاسيما ما يتعلق بالنبوءات التوراتية وعودة المسيح ثانية، والمرتبطة بمعركة أسطورية تجري أحداثها في سهل المجدل أو بيسان في فلسطين، منذرة بنهاية الأزمنة، وبدور إسرائيل واليهود في هذا المشهد الذي ستلعب فيه إسرائيل «دور البطولة في معركة نهاية الأزمنة، وتقريب العودة الثانية للمسيح المنتظر»، وفقاً لمقولات ريجان عام 1984.

ومن أبرز النماذج على طبيعة فكر الرئيس ريجان وعقليته الأصولية المسيحية الصهيونية، ذلك الحديث الذي نشرته على لسانه صحيفة **واشنطن بوست** في 27/ 9/ 1984، والذي يوضح مدى التزاوج المدهش بين الصهيونية المسيحية والسياسة الأمريكية في أواخر القرن العشرين، وكيف يعالج رئيس أكبر وأعظم دولة في العالم أزمة الصراع العربي-الإسرائيلي، فالعلاج عنده توراتي وأسطوري، ولنقرأ ما قاله الرئيس ريجان: «حينما أتطلع إلى نبوءات اليهود القديمة في العهد القديم، وإلى العلاقات المرتبطة

بمعركة هرمجدون، أجد نفسي متسائلاً عمّا إذا كنا نحن الجيل الذي سيرى ذلك واقعاً، ولا أدري إن كنت قد لاحظت مؤخراً أياً من هذه النبوءات. لكن صدقني، إنها قطعاً تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه»[53].

ولنتذكر أن هذا الحديث ليس صادراً عن أحد رجال الكنيسة أو حاخامات اليهود؛ وإنما عن رئيس أقوى دولة في القرن العشرين، وتملك أكبر مخزون لأسلحة الدمار الشامل، ويطرح من خلال حديثه التوراتي تخيلاً أو مشهداً لعلاج قضية الصراع العربي-الإسرائيلي، يتم عن طريق معركة خرافية تسمى هرمجدون، وذلك حينما تغزو جيوش الشر (روس وفرس وعرب وأفارقة وصينيون... إلخ) دولة إسرائيل، وستباد جيوش الغزاة بفعل قنبلة ذرية، وسيموت الملايين من الإسرائيليين، أما المتبقي منهم فإنه سيتم إنقاذه، لكي يقبل المسيح القادم لإنقاذه كمخلص له[54]. وعندها سيبزغ فجر عصر الألف عام السعيد.

وكان الرئيس ريجان قد أعلن هذا الموقف في مقابلة له مع مجلة **الناس** (*People*) الأمريكية الصادرة في 6/ 12/ 1983، وأعيد نشر هذه المقابلة في وثائق البيت الأبيض ونشرته الأسبوعية، وكرر ما قاله في أكثر من إحدى عشرة مناسبة، حينما كان حاكماً لكاليفورنيا أو رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية، وقالها في منزله وفي البيت الأبيض، وعلى الهواء، وأمام رجال سياسة ودين وأعمال... إلخ، وظل يعتقد أن الجيل الحالي هو الذي سيشهد معركة هرمجدون. وقد أثار موقف الرئيس ريجان هذا حفيظة مجموعات دينية كاثوليكية؛ فأصدرت بياناً وإعلاناً في وسائل الإعلام طالبت فيه الرئاسة الأمريكية "التنكر للنظرية اللاهوتية"[55]، وقام البيت الأبيض بإصدار بيان في تشرين الأول/ أكتوبر 1984 يشير فيه إلى أنه رغم اعتقاد الرئيس ريجان بهرمجدون، فإن ذلك لن يعوق اقتناعه الجازم بالسلام[56].

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

لكن رغم هذه التفسيرات الضعيفة، فإن السؤال الذي يطرح أمام هذه المعضلة هو في كيفية الاقتناع بمدى جدية مسعى هذه القوة العظمى نحو بناء سلام عالمي أو سلام إقليمي في الشرق الأوسط، ما بقي هناك فكر لاهوتي خرافي يستوطن البيت الأبيض والكونجرس وقطاعات واسعة في المجتمع. ومن المضحك أن نظرية هرمجدون لا تشير إلى أي دور للولايات المتحدة في هذه المعركة، ويعترف بذلك أصحاب هذه النظرية المزعومة، لكنهم يقولون إن «أمريكا ستبقى حصن الأمان للمسيحيين بعد انتهاء المحنة»[57].

وقد تسرب هذا الفكر الأسطوري إلى المؤسسة العسكرية الأمريكية، وهي المؤسسة التي تملك مفاتيح وأزرار أضخم مخزون مدمر شمولي في التاريخ، من خلال محاضرات تلقى على كبار قادة الجيش، ومن أبرز المحاضرين المبشرين لنظرية هرمجدون، الصهيوني المسيحي البارز هيل لندسي صاحب الكتاب الشهير **كوكب الأرض العظيم الراحل** الصادر عام 1970 والذي طبع منه حتى الآن 15 مليون نسخة. كما توافر هذا الفكر الأسطوري في الخطاب السياسي لعدد من القادة السياسيين، عند وصف المعارك العسكرية بين العرب وإسرائيل أو تفسير الصراعات الناشبة في الشرق الأوسط.

رابعاً: دور الكنائس في المجتمع الأمريكي

1. فصل الدين عن الدولة لا عن السياسة

يعتبر الدستور الأمريكي الأداة الأساسية للحكم، والقانون الأعلى للولايات المتحدة الأمريكية، وتم التوقيع عليه في تموز/ يوليو 1778، وجرى تبنيه رسمياً في الرابع من آذار/ مارس 1789، وقد اعتبر دستوراً

فريداً من نوعه مقارنة بأنظمة حكم كانت سائدة في العالم وقتذاك. ومازال هذا الدستور يحكم الأمريكيين، بعد أن كان قد وضع أصلاً لتنظيم حكم أربعة ملايين نسمة في ثلاث عشرة مستعمرة شديدة التباين والاختلاف، لكن أحكامه الأساسية التي وضعها الآباء المؤسسون ظلت صالحة لتوفير إطار لحكم بلاد هائلة في حجمها وضخامة عدد سكانها الذي يصل الآن إلى نحو 275 مليوناً.

ولم يدخل على الدستور طوال هذه المدة إلا ستة وعشرون تعديلاً. وقد وفر التعديل الأول للدستور التركيز على حقوق حرية التعبير وحرية الاجتماع، لكن الغريب في الدستور أنه لم يأت على ذكر الأحزاب السياسية ولا على ذكر دورها باعتبارها وسيلة يعتمدها المرشحون للمناصب العامة.

وقد أنشأ الدستور المحكمة العليا، حيث لا تمكن مراجعة أي قرار صادر عنها أمام أي محكمة أو جهة أخرى. وينيط الدستور الأمريكي السلطة التنفيذية بالرئيس، والسلطة التشريعية بالكونجرس.

ومن أبرز السمات التي حرص الآباء المؤسسون على وضعها في الدستور الحرية الشخصية تعبيراً عن واقع أمريكي حقيقي، حيث يبين هذا الواقع أن سكانها قد قدموا إلى أمريكا من بيئات مختلفة اتسمت بالقمع السياسي والديني. ويتبين من التعديلات الستة والعشرين في الدستور أنها كانت بهدف توسيع مدى الحريات الفردية والسياسية والدينية، وبخاصة حرية العبادة والتعبير.

وقد سادت المذاهب البروتستانتية، وسيطرت على معظم السلطات في الولايات المتحدة الأمريكية عند إنشائها، وبدت "المسحنة" واضحة في

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

ديباجة الدستور الذي وضع الأمة الأمريكية تحت "حماية الله"، وحملت العملة الأمريكية شعار "بالله نثق" (In God We Trust)، ومازال رئيسها المنتخب يؤدي اليمين الدستورية بالقسم على "الكتاب المقدس". وفي الوقت نفسه، تميز المجتمع الأمريكي بقبول جميع الديانات والمذاهب والنحل والبدع؛ ففيه يعيش البوذي والكونفوشي والشنتوني والمرموني وشهود يهوه والمسلم والكاثوليكي والشاذ والملحد... إلخ. كما يتميز بالحرية في اعتناق أي ديانة أو الخروج منها، ويتقبل التعدد والتنوع والفرق والجماعات والآراء.

وحينما كان الرق منتشراً في الولايات الأمريكية خلال القرن التاسع عشر، لم تكن النبرة الدينية في الولايات الجنوبية تفارق الحجج المؤيدة لتملك العبيد. وحوّلت هذه النبرة الدينية في مرحلة تالية مشكلة الرق من مسألة أخلاقية إلى مسألة سياسية، لكنها ظلت تتحدث عن الواجبات المسيحية التي تترتب على ملاك العبيد.

وعودة سريعة إلى مسألة الدين والدولة والفصل بينهما، فإن الأصل في المسيحية على مستوى العقيدة هو مبدأ الفصل، وذلك تطبيقاً لقول السيد المسيح عليه السلام: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، وقد تكرر هذا المعنى كثيراً في الأناجيل المتعددة. وتفرغ رجال الدين المسيحي عبر القرون لأداء وظائفهم الدينية داخل مجتمعات خاصة بهم ومغلقة، وصار لهم على الناس سلطان كبير، حيث ملكوا حق الإباحة والتحريم وتفسير الدين ومراقبة تنفيذ أحكامه.

ومع مرور الوقت ملكت هذه الكنائس العقارات والأراضي والممالك، وصارت بحاجة إلى جيوش للدفاع عنها، وفي مراحل تاريخية مختلفة

كانت موازين القوة تميل نحوها، فيكون لها السيطرة والغلبة في المجتمع من خلال الصراع مع الدولة.

وعندما انتقل البروتستانت إلى الولايات الأمريكية خلال القرن السابع عشر، ولأنهم كانوا القوة الغالبة فقد سيطروا على كل سلطة في معظم المناطق الأمريكية، وتجاوزوا المستوى النظري لعملية الفصل الموجودة في المسيحية، وظلت سيطرة العقيدة البروتستانتية وفكرها وتقاليدها كاملة حتى أواخر القرن الثامن عشر. وفي القرن التاسع عشر شهدت الولايات الأمريكية هجرات كثيفة من الكاثوليك، مما أدى إلى بروز مخاوف بروتستانتية من مشاركة الكنيسة الكاثوليكية لما حققته الكنائس البروتستانتية من امتيازات وسلطات دينية في مواجهة الدولة، فتراجع قادة البروتستانتية وطالبوا بتطبيق المبدأ النظري المسيحي بفصل الدين عن الدولة. وقد تم لهم ذلك، وجرى إدخال تعديل على الدستور عام 1789 يقر مبدأ فصل الدين عن الدولة بحيث تقف الدولة على الحياد في العلاقات ما بين الإنسان والدين، وينص التعديل الأول في الدستور على الآتي: «لن يصدر الكونجرس أي قانون بصدد ترسيخ دين، أو منع ممارسته»، بهدف إنشاء حائط فاصل ما بين الكنيسة والدولة، وهذا يعني امتناع الكونجرس عن سن قوانين تؤسس ديناً، أو تمنع حرية التعبير الديني، أو تجبر أحداً على اتباع دين معين بأي وسيلة، أو أن تساعد الدولة على ذلك مادياً أو معنوياً. ومن الواضح أن هذا التعديل يعني امتناع الدولة عن تقديم أي دعم لأي دين.

ويتضح من قراءة لعدد من القرارات الرئاسية والأحكام القضائية المتعلقة بفصل الدين عن الدولة، أن المقصود من كل ذلك هو حماية الدين من تدخل الدولة في شؤونه.

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

فالدولة لا تمنح أرضاً أو مساعدة لأي دين ولا توفر حتى مواصلات مجانية لنقل أطفال مدرسة دينية، ولا تسمح للتلاميذ بقراءة نص شبه ديني في بداية كل يوم دراسي (أيها الرب، بارك والدينا وأساتذتنا وبلدنا)، ولا تقدم قروضاً أو تسهيلات بنكية لإصدار كتب دراسية لمدرسة دينية... إلخ.

وبالمقابل تعفي الكنائس كافة وما يرتبط بها من متاحف ومستشفيات وجامعات ومنظمات من دفع الضرائب؛ وذلك حتى لا تتدخل في شؤونها الداخلية عند تقييم الممتلكات لفرض الضرائب.

من هنا نفهم معنى أن تصدر المحكمة العليا حكماً بعدم دستورية الصلاة في المدارس أو تلاوة الإنجيل في داخل الصفوف المدرسية. ولعله في جانب منه يعني احترام المشاعر الدينية للتلاميذ الآخرين من غير المسيحيين. لكن في الوقت نفسه، فإن تأثير الدين يمتد في نسيج المجتمع ويمتزج في ثنايا التعليم والفنون والسياسة ولا ينجو شيء من قبضته؛ فالقسيس مثلاً يمكن أن يكون مؤمناً جيداً وكاذباً جيداً دون أن يكون هذا الأمر افتعالاً، وهنا يجري التركيز على الخطيئة لا الهرطقة. ولنتذكر في هذا المجال خطايا عدد من الرموز الدينية المسيحية، وعلاقاتهم الآثمة مع نساء خارج مؤسسة الزواج، من أمثال القساوسة بيكر وسويجارت وجيسي جاكسون... إلخ.

2. سلطة الإيمان الأصولي

أدى بروز ظاهرة الأصولية المسيحية خلال العقود الثلاثة الماضية، ووصول هذه الظاهرة إلى مواقع عليا في الإدارة التنفيذية والسلطة التشريعية إلى زيادة شوكة تدخلها في شؤون الدولة وفي حياة الناس،

وتحول الحائط الفاصل بين الدين والدولة إلى خيط واه، فاختلط الدين مع السياسة، وأدى هذا الخلط إلى وجود نوع من الثقافة الدينية التي تتسرب في صلب البيانات والتصريحات التي يلقيها السياسيون والزعماء المدنيون.

وتتميز الكنائس الأمريكية، وبخاصة البروتستانتية، عن غيرها من الكنائس في العالم بأنها أكثر انطلاقاً في التعبير عن نفسها تجاه القضايا المجتمعية، وتستخدم الأساليب والأدوات نفسها التي تستخدمها المنظمات غير الدينية للتأثير في السياسات العامة، وبخاصة أساليب جماعات الضغط المسماة بـ "اللوبي"، كما ملكت إمكانيات إعلامية وتعليمية ودور نشر وجامعات ومدارس ومراكز بحث ووسائل استطلاع رأي متنوعة، واستخدمت هذه الإمكانيات للتعبير عن مواقفها والتأثير في مسار القضايا الداخلية والخارجية. وصارت رسالتها قادرة بفعل تقنيات الاتصال الجماهيري على الوصول إلى فئات فاعلة ومؤثرة وثرية في المجتمع؛ فهي تزود الناس بالمبادئ والقيم الدينية والإرشادات لمساعدتهم على اتخاذ قراراتهم، وتزودهم بالوعي بحقوقهم الانتخابية وتحثهم على ممارستها، وتنفق مئات الملايين من الدولارات على مسائل تعليمية وصحية واجتماعية وترفيهية ودعائية. وقد تنامى التعليم الديني خلال العقود الثلاثة الماضية بشكل متسارع ومذهل، ويقول استطلاع لمعهد جالوب أجراه عام 1983 أن 63٪ من الأمريكيين يثقون بالكنائس المنظمة، بينما ثقتهم بالتعليم الحكومي والمؤسسات الاجتماعية لا تزيد على 37٪[58].

وقد انتخب الشعب الأمريكي خلال العقود الثلاثة الماضية رئيسين يؤمنان بأهمية الدين في المجتمع، ورفع مرشحون للرئاسة ولعضوية الكونجرس شعارات ومبادئ تركز على دور الدين في السياسات العامة.

وترشح قساوسة للرئاسة أو لنيابة الرئيس، واحتلت مسألة الدين الصدارة في مناقشات الحملات الانتخابية. وصارت البرامج الدينية لنجوم "الكنائس الإلكترونية" تشد المشاهد أكثر مما تشدهم البرامج الرياضية والفنية، واعتبرت حركات الصهيونية المسيحية ومنظماتها "أهم ظاهرة سياسية في القرن العشرين".

وتستخدم الكنائس ومنظماتها كافة وسائل الضغط والتأثير في القرارات الحكومية والسلطة التشريعية واتجاهات المجتمع، وتساهم في عملية التأثير أيضاً في السياسة الخارجية بخاصة، من خلال نشاطات بعثات الكنائس في الخارج، أو من خلال برامج المساعدات الأمريكية الدولية.

ولا أستبعد أن تحل الإدارة الأمريكية الحالية "الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية" وأن تحول مهماتها إلى المنظمات الخيرية والكنسية، وذلك تحت إلحاح وضغوط مارستها الحركة المسيحية الأصولية طوال التسعينيات من القرن العشرين، وبخاصة من قبل القس الصهيوني فرانكلين جراهام ابن المبشر الصهيوني المعروف بيل جراهام بحيث تستفيد منظمات يهودية وكنائس مسيحية صهيونية من الوضع الجديد للمساعدات الأمريكية، والتي يتجاوز مقدارها سبعة مليارات دولار سنوياً. وقد تقدم بمشروع إلغاء الوكالة الأمريكية للتنمية السناتور هيلمز رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، وطالب بأن تقدم المساعدات الدولية في المستقبل عن طريق المنظمات الخيرية الخاصة والجمعيات الدينية. وكان السناتور المذكور قد اتهم مراراً الوكالة الحكومية بأنها تضع هذه الأموال في جيوب قادة نظم دكتاتورية فاسدة. وإذا استطاع قادة الكنائس إقناع الكونجرس بمشروع

هيلمز فإنه سيحدث أول تغيير مهم بعد أكثر من 40 عاماً من اتباع أسلوب الحكومة الأمريكية في تقديم معوناتها، كما سيشكل هذا التغيير أداة قوية بيد الأصولية المسيحية الصهيونية، واستخدامها في السياسة الدولية ولاسيما في العالم الثالث.

من ناحية أخرى فإن للكنائس دوراً مؤثراً في تعبئة أتباعها نحو ممارسة التصويت في العملية الانتخابية، وفي السياسة الخارجية؛ وقد مارست دوراً رئيسياً في زرع أطروحة معاداة الشيوعية في العقل الشعبي وفي فلسفة المجتمع على مدى أكثر من نصف قرن. وفي خطاب للرئيس ريجان في آب/ أغسطس 1984 يقول: «يلعب الدين دوراً حاسماً في الحياة السياسية لأمتنا».

وقادة الكنائس هم الذين يتخذون المواقف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم يطيعها أعضاؤها، وتنعكس أقوالهم على الرأي العام؛ فحينما يقولون مثلاً: «إن الله يتعامل مع الأمم حسبما تتعامل هذه الأمم مع إسرائيل، وإن الوقوف ضد إسرائيل هو وقوف ضد الله» نفهم لماذا هذا الانحياز الأعمى.

3. الالتزام الروحي والأخلاقي بإسرائيل

الموقف الأمريكي من إسرائيل وسياساتها الاستيطانية والتوسعية والعنصرية هو نموذج واضح ومميز لاختلاط الدين بالسياسة، وقد أدى هذا التشابك إلى وجود نوع من الرموز الخطابية الدينية في بيانات وتصريحات ومواقف قادة ونخب سياسية ومدنية، مستقاة من العهد القديم أو ما يسمى بالتوراة التي تدور في معظم أسفارها حول بني إسرائيل واليهود (أنبياء وملوك وأشعار وتقاليد ورؤى للآخرين. . . إلخ).

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

وبرز نوع من "الدين الشبحي" لنشاط المجتمع الأمريكي، وهو الدين المدني (Civil Religion) الذي تضم مكوناته الإيمانية البروتستانتية والكاثوليكية واليهودية، في إطار التوراة وجذور وشروح توراتية، مما يفسر استخدام النخب الأمريكية لمصطلحات «الالتزام الأدبي، الأخلاقي، التراث المسيحي اليهودي المشترك، التراث الروحي والتاريخي، الأرض الموعودة، إسرائيل. . . إلخ» في وصف علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع هذا الكيان الصهيوني، ولا تستعمل مثل هذه الأوصاف مع أي دولة صديقة أو حليفة للولايات المتحدة في العالم غير إسرائيل.

والكنائس البروتستانتية هي الأكثر عدداً وأتباعاً وثراء وتنظيماً، وهي كنيسة الطبقة العليا أو ما يسمى كنيسة الواسب (WASP)، الأنجلوسكسون البيض البروتستانت.

ويحرص الزعماء الأمريكيون على الاجتماع بقياداتها والالتحاق بعضويتها، ولها مكاتبها في العاصمة الأمريكية قريباً من صنع القرار، وقد وصل عدد أعضاء الجسم الكنسي في تسعينيات القرن العشرين إلى حوالي 150 مليوناً.

ورغم كل محاولات القوى العلمانية، ولاسيما من بين الجماعات اليهودية الأمريكية، للحيلولة دون "مسحنة" الولايات المتحدة الأمريكية، فإن جزءاً من وقائع السلوك السياسي الأمريكي يجري على مقتضى سلطة الإيمان الديني. ولعل أبرز السمات المثيرة التي ميزت الانتخابات الأمريكية الأخيرة في نهاية عام 2000، حضور الخطاب الديني بكثافة لافتة للانتباه في برامج المرشحين للرئاسة؛ فالمرشح آل جور يقدم نفسه للناخبين على أساس أنه "مسيحي مبعوث"، أما المرشح اليهودي جوزيف ليبرمان فقد

حرص على إظهار تمسكه بنصوص التوراة وترديد جمل من الوصايا العشر الواردة فيها، والتشديد على «تعاليم الرب» وأن «لا حرية خارج الدين». أما الرئيس الفائز جورج بوش الابن فهو لم يتردد في القول علناً أمام ناخبيه بأن فيلسوفه المفضل وملهم برنامجه السياسي هو المسيح، وأن «أمتنا قد اختارها الرب لتصبح نموذجاً». وتحدث أكثر من مرة عن مشروعات اجتماعية «مؤسسة على الإيمان»، وأحاط نفسه بعدد من الزعامات والقيادات المسيحية الأصولية، لمساعدته على «بلورة سياسات اجتماعية مستندة إلى الأخلاق الدينية».

ولاشك في أن هذه التوجهات لا تعكس رغبة فعلية في هدم الحائط القائم بين الدولة والدين أو إجراء تعديلات دستورية لخدمة الدين، لكنها في المجمل تعبر عن دور الدين في المجتمع وفي السياسة، والحرص على توظيف قيم دينية في سياسات اجتماعية، وتعكس مدى قبول الأمريكيين لممارسة شعائر الدين، حيث يقر 90٪ من الأمريكيين بأنهم متدينون ممارسون، وهي من أعلى النسب في المجتمعات الغربية المسيحية.

4. حروب دينية صامتة، وتحولات في الموقف الكاثوليكي

في كل الأحوال، فإن كنائس الأنجلوسكسون البيض البروتستانت (الواسب) هي التي تتصدر عملية صياغة وتلوين هذه المنظومات القيمية والأخلاقية، وهي كنائس تحمل مخزوناً هائلاً من التهويد، ومن الإيمان بالنبوءات التوراتية، وبعلاقة هذه النبوءات بدولة إسرائيل.

وفي الساحة الدولية وفي الوقت الراهن، تجري حروب بين البروتستانتية والكاثوليكية، بعضها ظاهر وبعضها باطن. وما يعنينا في

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

هذه الحروب الدينية هو ما تحققه البروتستانتية من مكاسب، وتزايد أعداد المنتمين إليها من المنشقين على الكاثوليكية، وما يعني ذلك من انتشار للصهيونية المسيحية في مواقع جغرافية خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية؛ ففي أمريكا اللاتينية والتي تعتبر الخزان البشري للكاثوليكية، حيث يوجد أكثر من 350 مليون كاثوليكي متدين ومنتم إلى الكنيسة نجحت الكنائس البروتستانتية الأمريكية في السنوات الأخيرة في سحب "سجادة الإيمان" من تحت أقدام الكاثوليكية، ويتحول يومياً عشرات الآلاف إلى البروتستانتية؛ حتى إن كنيسة بروتستانتية واحدة تعرف باسم "المجلس الرباني" أصبح لها أكثر من 90 ألف كنيسة منتشرة في البرازيل وتضم 15 مليون عضو، جميعهم تحولوا من الكاثوليكية في أكبر دولة كاثوليكية في العالم.

وهذا الأمر يصيب الفاتيكان بالرعب والقلق؛ فجواتيمالا مثلاً بعد أن كانت نسبة البروتستانت فيها لا تزيد على 5٪ ارتفعت إلى 30٪، وفي المكسيك الأكثر تطرفاً في كاثوليكيتها والأشد تمسكاً بها ارتفع عدد البروتستانت إلى أكثر من 20 مليوناً (15٪ من السكان)، وأكثريتهم في المناطق الأشد فقراً حيث قاموا في التسعينيات بثورة مسلحة، أما اليوم فهم يربطون بين السلطة الفاسدة والكنيسة الكاثوليكية، في حين أنهم صاروا ينظرون إلى البروتستانتية على أنها رمز إلى التحرر والازدهار، وقد سارعت إلى إغرائهم بأموالها المعفاة من الضرائب. ويصف البروتستانت هناك البابا بأنه «جزء من مخطط الشيطان»، في حين يصفهم البابا بأنهم «أكلة لحوم ويمزقون المجتمع». وهناك تغلغل بروتستانتي مشابه في روسيا وآسيا الوسطى ينذر باحتمالات صدامية كبيرة.

ولاشك في أن الكاثوليكية عملت عبر التاريخ الميلادي المسيحي على الاضطلاع بحماية "العهد الجديد"، والحيلولة دون "تهويد" المسيحية. وقد عارضت الكاثوليكية الحركة الصهيونية اليهودية منذ لقاء بابا الفاتيكان مع الزعيم اليهودي هيرتزل عام 1904، كما عارضت هجرة اليهود إلى فلسطين، ولم توافق على وعد بلفور، ونظرت إلى اليهود على أساس أنهم جماعات تتحمل وزر "صلب" المسيح، ولعنتها في المواعظ والخطب الدينية على مدى ألفي عام.

وخالفت الكاثوليكية مواقف الكنائس البروتستانتية تجاه اليهود، وتفسيراتها الحرفية للعهد القديم، وارتضت التفسيرات الرمزية والمجازية التي يضعها البابا نفسه. فاليهود عند الكاثوليك جماعة بلا مستقبل "جماعي"، وخلاصها يكون بعودتها إلى المسيحية، ولا مكان لوجود "أمة يهودية" أو لاحتمال "عودتها" إلى فلسطين. وفسرت الكاثوليكية مسألة هذه "العودة" بأنها تمت بالفعل حينما أعيد يهود السبي البابلي، ورأت الكاثوليكية في فلسطين أرضاً "للعهد الجديد".

واستمرت هذه المواقف المحكومة بمبادئ الكاثوليكية حتى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، حينما أخذ التعاطف مع ما نشر عن معاناة اليهود أثناء الحكم النازي ينتشر في العالم الغربي، فظهر تعاطف من بعض الكاثوليك، لكن ظلت الكنيسة حتى عام 1951 تصف اليهود بأن «الشيطان قد ملأ قلوبهم بالغرور القومي والزهو العنصري والجشع والرغبة في الانتقام والنفاق والقسوة تجاه الجيران». وأبدت الكنيسة أسفها في عام 1952 «لاعتبار ألمانيا مسؤولة عن جرائم الحرب، وإرغامها على دفع تعويضات لليهود».

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

واعتمدت الكنيسة الكاثوليكية عند قيام إسرائيل عام 1948 موقفاً صامتاً لا يعترف بإسرائيل ولا يدين قيامها، وأبدت اهتماماً بمسألتي تدويل القدس واللاجئين الفلسطينيين[59].

وفي ظل الحملة الأمريكية الواسعة ضد الشيوعية في الخمسينيات، وهي الحملة التي قادها السناتور جوزيف مكارثي (J. McCarthy)، قدمت خلالها إسرائيل باعتبارها دولة ضد الشيوعية، وقدم العرب بصفة أصدقاء للاتحاد السوفيتي. وارتفعت أصوات داخل الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية، تطالب بمواقف أمريكية منحازة إلى إسرائيل باعتبارها "دولة غربية" تعمل دون انتشار الشيوعية. وبدأت مرحلة ممارسة ضغوط على الفاتيكان لإعطاء شرعية لاهوتية كاثوليكية للدولة اليهودية في فلسطين[60].

ومع صعود البابا يوحنا الثاني والعشرين إلى الكرسي البابوي عام 1959 حدث تغير في الموقف الكاثوليكي، وبخاصة أن هذا البابا كان متعاطفاً مع اليهود ومع ما يذاع وينشر عن معاناة لهم خلال الحرب العالمية الثانية، فأصدر البابا أول وثيقة كاثوليكية عام 1965 تخفف عن كاهل يهود اليوم مسؤولية قتل أو صلب المسيح، لكنها لا تنفي عنهم التهمة، إنما أنكرت أن يوجه الاتهام ضد اليهود جميعاً، سواء من كان منهم حياً أثناء الصلب أو يهود العالم المعاصرون. واعتبر اليهود هذه الوثيقة غير كافية، لأنها في رأيهم لم تدن "اللاسامية"، وإنما استهجنتها، ولم تشر إلى ما يسمى بـ "المحرقة" أو "الهولوكوست" ولا إلى دولة إسرائيل، ولم تظهر احتراماً لليهودية... إلخ.

وظل الفاتيكان لا يعترف بإسرائيل، باعتبار أن هذا الاعتراف هو "مسألة دنيوية لا تخص الكنيسة"، حتى جاء انتصار إسرائيل العسكري في حزيران/ يونيو 1967، فغيَّر الكثير من المواقف.

ففي كانون الثاني/ يناير 1973 التقى البابا بول السادس جولدامائير رئيسة وزراء إسرائيل، وصارت إسرائيل على جدول أعمال الحوارات اليهودية ـ الكاثوليكية، وأخذت الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية مواقف أكثر اقتراباً من المسائل اليهودية والإسرائيلية من الفاتيكان، وأبدت مظاهر مؤيدة لإسرائيل، سواء داخل صحافتها أو في بياناتها ومؤتمراتها. وقد ساعد على ذلك توافر المناخ السياسي المؤيد للصهيونية ولإسرائيل داخل الساحة الأمريكية، وخرجت بيانات واضحة في تأييدها للصهيونية السياسية من بعض الأساقفة والقيادات الكنسية الكاثوليكية، من بينها الوثيقة المنشورة للأب فلانيري رئيس "سكرتارية الرهبان الأمريكيين لتعزيز الوحدة المسيحية" في نيسان/ إبريل 1975، والتي تطالب الكاثوليكية بالوقوف مع «حق إسرائيل في حدود آمنة، وأن تظل أمريكا صامدة في دعمها لإسرائيل»[61].

ومع مرور الوقت وازدياد مساحة نفوذ الصهيونية المسيحية في أمريكا، تسربت لدى بعض الكاثوليك الكثير من المفاهيم الصهيونية، واعتبروا أنفسهم أصوليين (Fundamentalists)[62]، وقدر عددهم في منتصف الثمانينيات بحوالي عشرة ملايين من مجمل تعداد الكاثوليك البالغ حوالي 53 مليوناً[63].

أما موقف الفاتيكان فقد تطور في منتصف السبعينيات، وبدأ حواراً مع المنظمات الصهيونية اليهودية، وأصدر وثيقة عام 1975 رد فيها الاعتبار للديانة اليهودية «كتراث ديني غني»، وشدد على تبرئة اليهود و«الاستجابة لدواعي السلام الأهلي في أوربا»، كما تطور الأمر أكثر في منتصف الثمانينيات حينما صدرت وثيقة بابوية جديدة تؤكد الأصل اليهودي للمسيح.

ومنذ التسعينيات أخذ الفاتيكان باستراتيجية المصالحة التاريخية بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود واليهودية، فوقّع مع الدولة اليهودية اتفاقية أساسية في عام 1993 أدت إلى تطبيع العلاقات وإقامة علاقات دبلوماسية في حزيران/ يونيو 1994، كما وُقّع بينهما اتفاق آخر في عام 1997 بعنوان «اتفاقية حول الشخصية المعنوية أو القانونية للمؤسسة الكنسية في فلسطين» يعترف بوجودها في القانون الإسرائيلي.

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1997 نظم الفاتيكان مؤتمراً تحت عنوان «جذور معاداة اليهودية في الوسط المسيحي»، وقد دعا المؤتمر إلى مراجعة وتعديل بعض النصوص الدينية في العهد الجديد ولاسيما إنجيلا متى وبولس لإنصاف اليهود، كما أكد المؤتمر أن «المسيحيين واليهود يتقاسمون الاعتقاد بالإله "يهوه"».

وفي ختام أعمال المؤتمر وجه البابا كلمة اعتبر فيها أن «المقاومة المسيحية ضد النازية لم تكن بالشكل المطلوب»، ودعا إلى «تنظيف الذاكرة المسيحية من الكتابات المضادة لليهود».

كما جرى في عام 1998 وفي حاضرة الفاتيكان احتفال يهودي لأول مرة في التاريخ، بمناسبة الذكرى الخمسين لقيام دولة "إسرائيل"، بحضور الكاردينال كاسيدي رئيس اللجنة الفاتيكانية للعلاقات مع اليهود، وحضور وزير خارجية الفاتيكان، والسفير الإسرائيلي لدى الفاتيكان.

وفي آذار/ مارس 1998 أصدر الفاتيكان وثيقة مهمة حملت العنوان «نتذكر: تأمل في المحرقة» تجاوزت مسألة ما يسمى بـ"الهولوكوست" إلى تاريخ العداء الكاثوليكي ـ اليهودي، واعتبرت أن المسيحيين يتحملون واجباً أخلاقياً لضمان ألا تتكرر "المحرقة" ثانية.

وهذه الوثيقة "الاعتذار"، جاءت تنفيذاً للوعد الذي قدمه البابا قبل أكثر من عقد من الزمان للمنظمات الصهيونية اليهودية الأمريكية، ومعنى هذه الوثيقة أن الفاتيكان يبارك إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، ويدعم الدولة اليهودية فيها، ويفتح الباب أمام تحول مفهوم "اليهومسيحية" إلى مفهوم سياسي لمباركة الدعوة الصهيونية اليهودية العنصرية، والمعادية لحقوق المسلمين والمسيحيين في فلسطين.

ولاشك في أن الضغوط السياسية الخارجية قد مارست - وتمارس - دوراً مهماً في تلوين بعض التوجهات داخل دوائر كاثوليكية بألوان الاتجاهات المتهودة، كما أن ضعف تمثيل مسيحيي الشرق في روما يسهم في تعزيز تأثير الاتجاه المهتم بالعلاقات مع اليهود واليهودية في شكليهما ومضمونيهما المعاصرين.

إن الوثيقة على حد قول الكاردينال كاسيدي هي «أكثر من اعتذار» ومراجعة ضمير حيال «الآثام والأخطاء والجرائم التي ارتكبت باسم الكنيسة على مدى قرون». فالوثيقة لم تراجع حقبة المرحلة النازية فحسب، بل تطرقت أيضاً إلى تاريخ "العلاقات المسيحية-اليهودية"، وهي العلاقات التي زادها سوءاً (والكلام مازال للوثيقة) «التفسيرات الخاطئة وغير العادلة لإنجيل العهد الجديد».

لكن المحصلة الخطرة في هذه الاعتذارات المتوالية، والتي لا تعرف نهايتها، أن الجانب اليهودي يركز على أن مدخلها يجب أن يكون بتطوير علاقات الفاتيكان مع إسرائيل، لكون هذه الأخيرة «التجسيد الأيديولوجي والثقافي والمادي لروح الشعب اليهودي وآماله»؛ ومن ثم فإن أي مراجعة

«ضمير مسيحية» يجب أن تخدم سياسات إسرائيل وأن تصب في حضنها، وأن تسمح لها بمواصلة اغتصاب الحقوق الفلسطينية وإهدار الدم الفلسطيني والعربي مسلماً ومسيحياً في آن معاً، وبغطاء ديني أيديولوجي كاثوليكي هذه المرة.

ولاشك في أن فتح ملفات التاريخ المسيحي هو عمل شجاع، لكن هذه الشجاعة يجب أن تقترن بموقف حضاري وإنساني وشمولي لكل جوانب المأساة وبكل عناصرها، وذلك بعدم استخدام المعايير المزدوجة، وعدم التمييز بين "محرقة" تمت في الماضي ومحرقة مستمرة، وبين شعب وآخر.

ومن هنا يبرز دور الحوار الإسلامي-المسيحي، وبخاصة الطرف المسيحي العربي فيه، في كشف الستار الكثيف المسدول على الفكر العنصري، والممارسات العنصرية الإسرائيلية، وما تقدمه التيارات المسيحية المتهودة من دعم لمثل هذا الفكر وهذه الممارسات.

وفي الساحة الأمريكية أدى الوجود اليهودي المنظم والثري، والمالك أو المهيمن على مفاصل رئيسية في دوائر صناعة القرار وصياغته وتشكيله، إضافة إلى "العبرنة" الواضحة في معظم الكنائس البروتستانتية، ولاسيما المنظمات الأصولية التابعة لها إلى توليد صيغة مسيحية ملتبسة للهوية هي "الهوية أو التراث اليهودي-المسيحي". واللافت للانتباه أن هذا المصطلح أخذ يتسرب إلى الأدبيات الكاثوليكية.

خامساً: منظمات الصهيونية المسيحية الأمريكية

1. قيادات وبرامج مرئية ومسموعة ومقروءة

سعت الصهيونية المسيحية، منذ تبلور اتجاهاتها في ما قبل إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، لدعم نفوذها لدى الرأي العام الأمريكي، وممارسة الضغوط السياسية على الإدارات الأمريكية المتعاقبة من أجل مصلحة هجرة اليهود إلى فلسطين وإقامة وطن لهم فيها. واستخدمت الصهيونية المسيحية من أجل ذلك كل وسائل العمل السياسي والإعلامي والمنابر اللاهوتية، وتقديم العرائض ونشر الكتب والبيانات، وتأسيس المنظمات والمؤسسات العاملة من أجل دعوة اليهود "للعودة" إلى الأرض المقدسة وتيسير أمر هذه الهجرة، كما أسهمت في دعم وتمويل إنشاء مستعمرات يهودية زراعية وغير زراعية في فلسطين.

وفي ثلاثينيات القرن العشرين تسارع نمو منظمات صهيونية مسيحية، نشطت من أجل «مساعدة اللاجئين اليهود الفارين من ألمانيا وأوربا الشرقية لدخول فلسطين، ملاذهم الطبيعي»[64].

ومن بين هذه المنظمات "اللجنة الفلسطينية الأمريكية" التي تأسست في أيار/ مايو 1932 وقادها في مراحل تالية أعضاء كبار من الكونجرس وقادة عمال ورجال أعمال وأكاديميون ووزراء، وكذلك منظمة "المجلس المسيحي لفلسطين" في عام 1942 وغيرهما.

لكن التنامي الكبير في هذه المنظمات الصهيونية المسيحية عدداً وقوة، أخذ في التسارع بعد قيام إسرائيل وبخاصة في الستينيات حينما برزت قيادات صهيونية مسيحية عبر منابر كنسية ومحطات تلفزة وإذاعة، وقدمت برامج دينية ذات طابع جماهيري، ونشرت كتباً، وأنتجت أفلاماً سينمائية

ناجحة، وأسست مدارس وجامعات ومراكز بحث، وقد شكلت "إسرائيل" ودعمها والوقوف معها محوراً أساسياً في هذه الأنشطة، باعتبار أن «الوقوف ضد إسرائيل هو معارضة للرب».

ومن أبرز القيادات الصهيونية المسيحية القس جيري فولويل الذي اقتحم الحياة السياسية الأمريكية في مطلع الستينيات ببرامج متلفزة ومسموعة، من بينها برنامج «ساعة من إنجيل زمان»، والذي يبدو فيه أكثر تشدداً في دعم إسرائيل من كثير من اليهود الأمريكيين[65]. ولم تقف طموحاته عند حدود الوعظ في الكنيسة ووسائل الإعلام، بل عمل على بناء مؤسسات تعليمية، وإدارة وتملك أجهزة إعلامية، وتأسيس منظمة سياسية للعمل السياسي باسم "منظمة الأغلبية الأخلاقية" لممارسة الضغط على الكونجرس والإدارة الأمريكية، وللتأثير في اتجاهات الرأي في المجتمع الأمريكي، ولتعبئة الملايين من الأمريكيين لممارسة حقهم الانتخابي والتصويت على البرامج والأشخاص الذين ترشحهم منظمات الصهيونية المسيحية. ونجحت منظمة جيري فولويل في توفير عناصر النجاح لعدد من الشيوخ والنواب في الكونجرس، وحولت مواقف عدد غير قليل من الأعضاء لصالح التصويت الدائم لطلبات إسرائيل. وقادت منظمة فولويل زيارات منظمة طوال العقدين الأخيرين إلى إسرائيل، وكان القس فولويل يقود هذه الزيارات بنفسه، ويلتقي خلالها المسؤولين الإسرائيليين، مؤكداً إيمانه بأنه «يجب على كل مسيحي أن يجعل من بين أهداف حياته الشخصية زيارة إسرائيل»[66].

ولا يجد فولويل حرجاً في الإعلان عن صهيونيته، والدفاع عن سياسات إسرائيل وممارساتها العدوانية المسلحة ضد عرب فلسطين ولبنان، واعتبر أحد مساعدي مناحيم بيجن أن «منظمة الأغلبية الأخلاقية، هي

أحد أهم أعمدة إسرائيل في أمريكا، وأن عدد أعضائها عشرة أضعاف عدد اليهود»[67].

ولا يقف جيري فولويل وأتباعه وبرامجه ومنظماته، عند مسألة الوقوف مع إسرائيل دائماً، وإنما يمارس مواقف مناهضة للعرب ولحقوقهم، كما يعارض بيع أسلحة أمريكية للدول العربية، ويمارس ضغوطاً في الكونجرس لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، ويقدم "شهادات استماع" أمام لجان الكونجرس المختلفة بهذا الشأن، حيث يرى أن القدس «هي عاصمة لليهود منذ آلاف السنين»، وأن نقل السفارة إليها «خطوة مبررة دينياً وصحيحة سياسياً، وأن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم، التي يُنكر حقها في اختيار مكان عاصمتها»![68]

وقد عبرت إسرائيل عن تقديرها للقس الصهيوني جيري فولويل؛ فمنحته ميدالية الزعيم الصهيوني الإرهابي جابوتنسكي، ووزعت غابة باسمه في أحد جبال القدس المحتلة.

ومن القيادات الصهيونية المسيحية البارزة الأخرى، القس بات روبرتسون، الذي يعود بأصوله إلى أسرة هاريسون الذي وقَّع إعلان استقلال أمريكا، وكان والده عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي لمدة 34 عاماً. وأعلن بات روبرتسون ترشحه للرئاسة الأمريكية عام 1988.

ويقف روبرتسون على رأس منظمة متشعبة الأغراض والوسائل، ولها جذور شعبية وتأثير واسع المدى، وتعتبر شبكته الإعلامية المسماة "شبكة الإذاعة المسيحية" (CBN) من بين المحطات الأكثر حداثة وحذقاً ونشاطاً، واحتلت الموقع الرابع بعد شبكات التلفزة الرئيسية الثلاث في الولايات المتحدة الأمريكية، وتصل إلى أكثر من 30 مليون منزل[69].

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

وتملك مؤسسة روبرتسون جامعة معتمدة منذ عام 1977 تصدر نشرة إخبارية تضم أكثر من ربع مليون مشترك، وقد اعتاد أن يقول فيها إن «إسرائيل هي أمة الله المفضلة»، ويؤيد احتلالها للأراضي العربية ويعتبر العرب في برامجه المتلفزة أعداء الله!

وفي عام 1982 امتلك روبرتسون وأدار محطة للتلفزة في جنوب لبنان المحتل أسماها "نجمة الأمل"، وانخرطت برامجها في سياسات الشرق الأوسط دعماً لإسرائيل، ومهاجماً العرب والإسلام والمسلمين.

وفي أثناء غزو إسرائيل للبنان في صيف عام 1982، طلب روبرتسون في برنامجه «السبعمئة ناد» إلى المشاهدين أن يكتبوا إلى الرئيس ريجان وإلى أعضاء الكونجرس، لحث إسرائيل على مواصلة احتلالها للبنان إلى «الحد الذي تراه إسرائيل ضرورياً». وكان روبرتسون ضمن الوفد الرسمي الأمريكي المرافق لنائب الرئيس الأمريكي في زيارته الرسمية إلى السودان في شباط/ فبراير 1985، حيث وُقع على أثرها اتفاق أمريكي - سوداني لترحيل يهود أثيوبيا (الفلاشا) إلى إسرائيل[70]، وبفعل نشاط روبرتسون وحلفائه في الحركات الصهيونية المسيحية، فقد أصبح أكثر من 22 مليون مسيحي أصولي أعضاء في الحزب الجمهوري[71].

ومن القيادات الصهيونية المسيحية النشيطة، القس جورج أوتيس صاحب ومؤسس منظمة "رعوية المغامرة الكبرى"، وله صلاته القوية مع القيادات الإسرائيلية. وقد انخرط مباشرة في قضية الصراع العربي - الإسرائيلي حينما أسس في عام 1978 وبتشجيع من إسرائيل محطة للتلفزة والبث الإذاعي في جنوب لبنان المحتل، تعبيراً عن التزامه المعنوي والديني والسياسي بدعم إسرائيل. ومن خلال هذه المحطة كان يبث الرسائل

والإعلانات والبيانات المؤيدة للأغراض العسكرية الإسرائيلية، ولحلفائها في الشريط اللبناني المحتل، ويكثر في برامجه من ترديد مقارنات ما بين دولة إسرائيل وملوك بني إسرائيل الواردة أخبارهم في التوراة. ووفرت منظمة أوتيس قنوات اتصال لعملاء إسرائيل في جنوب لبنان المحتل مع السلطات الأمريكية، وكسبت لهم التأييد المالي والمعنوي في أوساط المسيحيين الأصوليين الأمريكيين.

ومن الشخصيات الصهيونية المسيحية البارزة الأخرى، القس مايك إيفانز، ومن برامجه الاستعراضية المرئية برنامج يسمى «إسرائيل: مفتاح أمريكا للبقاء». وقد اعتاد أن يستضيف في برامجه قادة من إسرائيل، وتغطي برامجه أكثر من 25 ولاية أمريكية، وينشر الإعلانات الصحفية الباهظة الثمن دعماً لإسرائيل ولسياساتها، ويرى أن «بقاء إسرائيل حيوي لبقاء أمريكا»[72]، وأنتج فيلماً واسع الانتشار أسماه «القدس. دي. سي» ويعني ذلك القدس عاصمة داوود، مستخدماً حرفي (D) و(C)، ليرتبط هذا المسمى في أذهان الأمريكان بحرفي (D) و(C) في عاصمتهم واشنطن دي. سي (District of Colombia)، بهدف التدليل على أن القدس هي عاصمة إسرائيل، مثلما أن واشنطن هي عاصمة الولايات المتحدة.

ويتضح مما سبق حدوث تطور هائل في أساليب الدعوة والتبشير والوعظ في الشؤون اللاهوتية؛ فالديانة لم تعد في المجتمع الأمريكي مجرد طقوس تؤدى في الكنائس في أيام الآحاد وفي الأعياد الدينية، وإنما تتم أيضاً من خلال التفاعل والاستجابة مع برامج دينية متلفزة يشاهدها ملايين الناس، وبخاصة من البالغين ممن تتجاوز أعمارهم الخمسين عاماً، وهم أضخم كتلة انتخابية وأكثر فئات المجتمع ثراء وتبرعاً واهتماماً بالعمل السياسي والاجتماعي.

وتأخذ هذه البرامج شكل الاستعراض (Show-Business)، وتظهر فيها إسرائيل "كشيء مقدس". وتناقش هذه البرامج مسائل السياسة والفن والرياضة والكوميديا والبطالة والجريمة والزواج... إلخ. ويتلقى مقدم البرنامج الآلاف من المكالمات الهاتفية والبريد الإلكتروني، يطلب أصحابها إرشادات واستشارات، ما يجعل هذه البرامج من أكثر مستخدمي الخط الهاتفي المجاني رقم (800) عدداً في الولايات المتحدة الأمريكية[73]. وتقدم هذه البرامج الأحداث الجارية بأساليب جذابة، وتمزجها بخليط من الأنباء والمقابلات والقراءات التوراتية، والحديث عن التراث اليهودي-المسيحي المشترك، كما تطلب إلى المشاهدين التبرع الفوري لدعم الأنشطة السياسية والاجتماعية والإنسانية التي تمارسها هذه المنظمات الكنسية، وتظهر على الشاشة أرقام حسابات هذه المنظمات وعناوينها، كما تطلب إلى المشاهدين كتابة الرسائل إلى أعضاء الكونجرس والبيت الأبيض وغيرهم للاحتجاج على موقف أو سياسة قد تضر بإسرائيل أو للمطالبة بدعم لها. ولسان حال هذه البرامج الكنسية المرئية يقول دائماً: «لن يخلد المسيحيون إلى النوم، مثلما نام العالم حينما قررت النازية تحطيم شعب الله المختار».

2. جماعات الضغط

شكلت الصهيونية المسيحية العديد من جماعات الضغط للتأثير في صناع القرارات في الإدارة الأمريكية من أجل تحقيق أغراضها وخدمة توجهاتها، وعقدت تحالفات متينة لهذا الغرض مع جماعات اليمين المحافظ السياسية، وهو اليمين الذي يؤمن بالمبادئ التوراتية نفسها، ويتميز بكفاءة كبيرة في التنظيم، واستقطاب الجماهير، وتوفير مصادر التمويل.

ومن بين هذه المنظمات الممارسة للضغط السياسي، منظمة "المائدة المستديرة الدينية" التي أسست في عام 1979، وقد ترأسها القس إدوارد ماك أتير (E. MC Atter)، وعقدت العشرات من الندوات التي شارك فيها سياسيون وقيادات أصولية مسيحية، كما أقامت "حفلات إفطار سنوية" للصلاة من أجل إسرائيل ودعم سياساتها، ودرجت على إصدار بيان عقب كل صلاة إفطار «تبارك فيه إسرائيل، باسم ما يزيد على 50 مليون مسيحي يؤمنون بالتوراة في أمريكا»[74].

وتشارك هذه المنظمة في إصدار النشرات وتقديم المعلومات لأعضاء الكونجرس، كما تشارك في تنظيم الرحلات إلى إسرائيل، وفي تنظيم حملات الرسائل إلى مراكز القرار السياسي الأمريكي لمصلحة إسرائيل.

ومن بين المنظمات التي تمارس أساليب الضغط السياسي (اللوبي) مؤسسة جبل المعبد (Temple Mount Foundation)، ولها امتداداتها داخل إسرائيل، وتركز هدفها على إنشاء "الهيكل" في القدس، ولها شبكة هائلة من المتعاونين معها من رجال أعمال وقساوسة، ولها فروعها في عدد من المدن الأمريكية، كما لها تفرعاتها على شكل لجان كنسية، وتعمل في مدينة القدس، وتوفر الدعم المالي لغلاة اليهود العاملين على هدم المسجد الأقصى وبناء "الهيكل" مكانه. كما توفر دعماً قانونياً عن أولئك اليهود الذين اقتحموا المسجد الأقصى واعتدوا عليه، وتجمع الأموال المعفاة من الضرائب وتبعث بها إلى إسرائيل، كما تقوم بشراء أراض في الضفة الغربية المحتلة لمصلحة إسرائيليين، وبخاصة في القدس الشرقية وضواحيها. كما تتولى هذه المؤسسة عمليات تدريب الكهنة اليهود وإعدادهم، وتجنيد خبراء في الآثار والتصوير وإيفادهم إلى فلسطين للتنقيب تحت المسجد الأقصى.

ومن المنظمات الصهيونية الضاغطة أيضاً "مؤتمر القيادة المسيحية الوطنية لأجل إسرائيل" والذي أسسه أكاديمي بارز في جامعة تيمبل في نيويورك وهو فرانكلين ليتل (F. H. Little) في مطلع عام 1980، ويرأسه القس إدوارد فلانيري (E. Flannery)، ويضم المؤتمر العشرات من القيادات الصهيونية غير اليهودية التي تمارس من خلال المؤتمر أنشطتها المتنوعة لخدمة إسرائيل وأمنها ورفاهيتها. وتنظم المظاهرات والمؤتمرات وتنشر البيانات والإعلانات، وتقيم العلاقات والتحالفات مع منظمات يهودية، وقد ركزت نشاطاتها خلال عقد الثمانينيات للعمل على إلغاء قرار الأمم المتحدة الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر 1975، والخاص بإعلان الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، واعتبرت أن هذا القرار يشكل «فضيحة لابد من إزالتها من سجل الأمم المتحدة»، ونشرت بياناً في كبريات الصحف الأمريكية حول هذا الموضوع، وقعه مئات من الكنائس البروتستانتية والقيادات الدينية[75]، وواصلت هذه المنظمة ضغوطها ونشاطها في هذا المجال حتى تم إلغاء قرار الأمم المتحدة المذكور في مطلع التسعينيات.

وهناك العديد من المنظمات الصهيونية المسيحية من أمثال منظمة "مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل" التي أسست في عام 1975، و"الصندوق المسيحي الأمريكي لأجل إسرائيل" المتخصص في شراء الأراضي العربية وحيازتها لأغراض بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية، وكذلك "الرابطة الصهيونية المسيحية لدعم إسرائيل"، و"وسطاء لأجل إسرائيل"، و"الكونجرس المسيحي الوطني" الذي يشارك فيه رهبان كاثوليك وقساوسة بروتستانت.

ومن المنظمات الصهيونية المسيحية النشطة داخل إسرائيل نفسها، المنظمة المسماة بـ "السفارة المسيحية الدولية"، وقد جاء تأسيسها تعبيراً عن أهمية القدس لدى أتباع هذه العقيدة الصهيونية المسيحية، وتأكيداً لأهمية العمل المسيحي "نيابة عن إسرائيل"[76]. وقد أسست عام 1980 وبحضور أكثر من ألف رجل دين مسيحي يمثلون 23 دولة، وافتتحت لها فروعاً في عدد كبير من عواصم العالم، ولها أكثر من عشرين مكتباً في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد جاء تأسيسها مباشرة في إثر قيام 13 دولة أجنبية بنقل سفاراتها من القدس إلى تل أبيب، كتعبير عن رفض هذه الدول للقرار الإسرائيلي الخاص باعتبار القدس عاصمة موحدة أبدية لإسرائيل. ويذكر المنشور المؤسس لهذه المنظمة «أن الله وحده هو الذي أنشأ هذه السفارة المسيحية الدولية في هذه الساعات الحرجة، من أجل تحقيق الراحة لصهيون، واستجابة حب جديدة لإسرائيل»، وتعتمد في تمويلها على تبرعات أفراد ومؤسسات في أمريكا وهولندا وجنوب أفريقيا، كما تتلقى الدعم المادي والمعنوي من الحكومة الإسرائيلية. وقد اختصر مؤسس هذه المنظمة أهدافها بقوله: «نحن صهاينة أكثر من الإسرائيليين أنفسهم»، وإن «القدس هي المدينة الوحيدة التي تحظى باهتمام الله، وإن الله قد أعطى هذه الأرض لإسرائيل إلى الأبد»[77].

وتمارس هذه المنظمة الصهيونية المسيحية كافة أنواع الأنشطة السياسية والدعائية والإعلامية واللاهوتية لصالح إسرائيل، كما تنشط في تقديم المعلومات والتثقيف للمسيحيين في جميع أنحاء العالم حول إسرائيل، وتحث القيادات المسيحية على ممارسة نفوذها لمصلحة اليهود، وعلى إقامة مشروعات اقتصادية داخل إسرائيل.

ومن أبرز نماذج أنشطتها ما تنشره من كتب ومجلات ونشرات، وحملات عرائض، وحملات بريد ورسائل، ورحلات سياحية إلى إسرائيل، وتنظيم مسيرات وتظاهرات، وحملات تبرع بالدم لصالح الجيش الإسرائيلي. كما اعتادت أن تعقد مؤتمرات سنوية للقادة المسيحيين، بدءاً من عام 1985، وحرصت على عقد أول مؤتمر لها في القاعة نفسها التي عقد فيها أول مؤتمر صهيوني دعا إليه هيرتزل في مدينة بازل السويسرية عام 1897، وأصدرت في نهاية المؤتمر بياناً صهيونياً متطرفاً اعتبرت فيه أن حق إسرائيل في كل فلسطين هو "حق توراتي"، وأن على العرب توطين الفلسطينيين في الدول العربية، ودعت مجلس الكنائس العالمي في جنيف إلى «الاعتراف بالصلة التوراتية التي تربط بين الشعب اليهودي وبين أرضه الموعودة». ويستشعر المسيحيون العرب في فلسطين المحتلة مدى خطورة نشاطات السفارة المسيحية الدولية، والتي تمارسها في القدس ومدن فلسطينية عديدة، وبخاصة قيامها بالاحتفال الدوري السنوي بالعيد اليهودي المسمى "عيد العريش" في مدينة القدس المحتلة، حيث تحشد السفارة فيه الآلاف من الصهاينة المسيحيين من جميع أنحاء العالم، وتحوله إلى مهرجان تأييد مسيحي لإسرائيل وسياساتها العنصرية والاستيطانية.

ومن الأنشطة والفعاليات الصهيونية المسيحية الحديثة في الساحة الأمريكية، تلك المدينة الترفيهية التي تم إنشاؤها مؤخراً في مدينة أورلاندو بولاية فلوريدا، في وسط المنطقة التي تعتبر من أكثر مناطق الجذب السياحي في الولايات المتحدة، حيث تقع مدينة "والت ديزني" الشهيرة. وقد أنشأ هذه المدينة الترفيهية المسماة "تجربة الأرض المقدسة" القس مارفن روزنتال، وهو يهودي تنصر وانضم إلى طائفة المعمدانيين البروتستانت.

وهذه المدينة عبارة عن متحف لاهوتي، يقدم أحداث العهدين القديم والجديد في جو احتفالي تقني مثير، ويعرض الصلات اليهودية والأعياد اليهودية وشمعدانها المعروف، ويقوم خلال العرض الفني ممثلون بأداء أدوار تمثل موسى وهارون، ومشاهد ولادة المسيح، ونظام القرابين لدى اليهودية؛ ويؤمن صاحب هذه المدينة الترفيهية بأنه يمكن أن يكون الإنسان يهودياً ومسيحياً في الوقت نفسه. وينتشر في هذه المدينة الكثير من الرموز اليهودية، كنجمة داوود، ويقف وراء هذه المدينة منظمة "أمل صهيون" التي تعتقد أنها تعمل لتحويل اليهود إلى المسيحية.

هذه نماذج قليلة من منظمات الصهيونية المسيحية، التي يزيد عددها على ثلاثمئة منظمة ومؤسسة وجماعة ضغط.

الخاتمة

لقد نمت هذه الحركة الصهيونية المسيحية في أمريكا بتسارع جارف وحجم كبير وبموارد ضخمة، وصارت تشكل تياراً سياسياً رئيسياً وبخاصة في الحزب الجمهوري ومؤسساته، وتؤدي دوراً مؤثراً وحاسماً في توفير التأييد الشعبي، والدعم المالي والمعنوي والسياسي والعسكري لإسرائيل، على قاعدة وشعار الحركة الأصولية المسيحية «هل تستطيع أن تحب المسيح من غير أن تحب إسرائيل؟»، وصارت توصف في الأوساط اليهودية بأنها أحد أهم أعمدة إسرائيل في الولايات المتحدة الأمريكية.

ونتذكر ما قاله المتحدث باسم "السفارة المسيحية الدولية"، حينما اعترض أحد الإسرائيليين المشاركين في المؤتمر الصهيوني المسيحي الأول المنعقد في بازل عام 1985، على اقتراح حث إسرائيل لإعلان ضم الضفة

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

الغربية وغزة مقترحاً تخفيفه، بسبب أن استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي تشير إلى أن ثلث الإسرائيليين يرغبون في مبادلة الأرض بالسلام، أجابه المتحدث باسم هذه المنظمة المسيحية: «لا يهمنا تصويت الإسرائيليين، ما يهمنا هو ما يقوله الله، والله أعطى هذه الأرض لليهود»، عند ذلك مر الاقتراح بالإجماع.

ولقد وعت إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية مدى أهمية المنظمات الصهيونية المسيحية لدعم المشروع الصهيوني، ولاسيما أن هذه المنظمات صارت تشكل قوة عددية ومادية ونفوذاً كبيراً في المجتمع الأمريكي، مما دفعها إلى التحالف والتنسيق معها، وتيسير حركتها وتلميع قادتها إعلامياً، والسماح لها بالحركة داخل المجتمع الإسرائيلي نفسه، واستخدمتها لأغراض ممارسة الضغط والتأثير في الرأي العام الأمريكي والعالمي لصالح أهداف إسرائيل وسياساتها.

وتدرك إسرائيل أن تحالفها مع هذه القوى المسيحية المتصهينة له فائدة استراتيجية، ووجدت أن مسألة تنصير اليهود في المستقبل "أي عند عودة المسيح الثانية" هي مسألة لاهوتية مؤجلة لا تستدعي الخوض فيها الآن، حتى لا يؤثر ذلك في تحالفات وعلاقات إسرائيل بالمسيحية الأصولية، ويبدو أن كلا الطرفين يتحاشى الخوض في هذه المسألة الخلافية، وكلاهما يملك عقلية براجماتية مدهشة. فالمنظمات الصهيونية المسيحية درجت في مراحلها المبكرة من هذا القرن على اعتبار أمريكا "أمة مسيحية"، لكنها تراجعت عن شعارها هذا واعتمدت شعاراً جديداً يعتبر أن الولايات المتحدة الأمريكية هي "جمهورية مسيحية - يهودية"[78].

وفي الوقت نفسه، فإن استقراء لتاريخ إسرائيل والحركة الصهيونية السياسية يبين أن إسرائيل لا تستطيع تحمل مسألة التدقيق في نوعية

أصدقائها، أو التردد في قبول الدعم، بل تأخذه من أي مصدر تستطيع الحصول عليه، ولا ترد اليد التي تمتد لدعم سياساتها وأمنها ووجودها، وأثبتت الصهيونية المسيحية أن "صهيونيتها" أشد تطرفاً وغلواً من صهيونية قطاع غير قليل من يهود إسرائيل نفسها.

من ناحية أخرى، يلاحظ وجود قاسم مشترك ما بين الفكر الصهيوني اليهودي، والفكر الصهيوني المسيحي، من حيث اعتقاد القوة، واعتبارها الطريق لتحقيق الغايات السياسية أو اللاهوتية، وكلاهما يتحدث عن الإبادة والغزو والحرب النووية. ويقول أحد زعماء الصهيونية المسيحية وهو جيري فولويل: «إن أبواب الجحيم ستفتح في معركة هرمجدون، وستقع إبادة جماعية ذرية على الأرض، وسيجري الدم في الشوارع»[79].

كما يتشابه مضمون الخطاب الصهيوني لدى اليهودية والمسيحية المتهودة، من حيث تبرير "الاستيطان عقائدياً"، واستخدام التطهير العرقي لسكان الأرض الأصليين، وامتلاك الشرعية المستمدة أو المبررة من فهم حرفي للتوراة، حيث كان الغزاة عبر التاريخ في الأمريكتين وجنوب أفريقيا وغيرها يتلحفون نموذج المسيحي المتهود المؤمن بمقولة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، وقد شكلت الصهيونية السياسية تجسيداً صارخاً لما تمكن تسميته بالإمبريالية "الثيوقراطية المسيحية"، وبررت الاستيطان واقتلاع السكان وقتلهم بمبررات توراتية.

ونمت هذه الاتجاهات المسيحية المتهودة عبر القرون الماضية وصارت جزءاً لا يتجزأ من مناخات الاستشراق، ومن الخطاب الاستشراقي المتمسك بخرافة كبرى حول الشرق والإسلام، ووصفهما بالجمود والتأخر

والتعصب، كما وظف الخطاب المسيحي المتهود في خدمة التبشير بالسياسات الاستعمارية في المنطقة العربية، مثلما استخدم للتوظيف المنفعي للدين ومروياته الخاصة بأرض الميعاد والشعب المختار، وكان متورطاً في تهيئة المناخ لولادة وتنامي ودعم حركة سياسية عنصرية استيطانية، لم يشهد تاريخ القرن العشرين لها مثيلاً في اغتصاب حقوق الآخرين وطمس واقعهم التاريخي.

كما ترعرعت هذه الاتجاهات المسيحية المتهودة في ظل سكوت علماء لاهوت عن الخوض في البعد الأخلاقي للاستعمار والاستيطان، بل إن هؤلاء أسهموا في جعل هذه الاتجاهات المتهودة الملتحفة برداء الغرب في توجهاته الاستعمارية الاستيطانية، قوة لها فرادتها الخاصة في سياق " شرعنة " التدخل والهيمنة.

وأدى الخطاب الأصولي المسيحي المتهود وظيفة تعبوية وسياسية وتخييلية خدمت السياسات الاستعمارية، مثلما عملت على تشويه الديانة الحقة، وفرضت في الوقت الراهن حالة من البكم على دوائر مسيحية عديدة لدوافع سياسية بحتة، إلى درجة أن صارت "إسرائيل" لدى مثل هذه الدوائر هي مركز الكتاب المقدس وليس الكنيسة. وأكثر من ذلك أنها قد حولت المسيح عليه السلام إلى رجل إرهابي عنيف وليس نبي سلام ومحبة، وهذا هو التفسير اليهودي لـ«المسيح العسكري الذي يحرر اليهود»!! وجعلت من "العهد" عنفاً وتسلطاً، في حين أن "العهد" هو طاعة الله لا رفض حكمه. وفهمت أن إبراهيم عليه السلام، عندما أخذ الوعد من الله بالأرض، أخذه تصريحاً من الله بالسرقة والاحتلال والقتل! وتجاهلت ما ورد في سفر التكوين بأن الهبة مشروطة بطاعة الواهب، وأن إبراهيم عليه السلام لم يكن متحمساً أن يأخذ حتى مغارة

لدفن زوجه سارة على شكل هدية، وإنما أصر على شراء الأرض ودفع الثمن كاملاً وتوقيع عقد قانوني أمام شهود.

وفي كل الأحوال لا تبدو "إسرائيل" في الخطاب الصهيوني المسيحي أمراً دنيوياً أو إنسانياً أو حتى سياسياً، ولكن تبدو "قضاء إلهياً"، ومن ثم تصبح معارضة سياسات إسرائيل خطيئة دينية، ويصير دعمها وتأييدها هو في سبيل مرضاة الله. وتكون تقويتها عسكرياً واقتصادياً ومساعدتها مادياً وتسويق منتجاتها وسنداتها، وإنشاء صناديق الاستثمار الدولية لمصلحتها، وبناء المستوطنات فوق أراض مغتصبة، وتنظيم الرحلات السياحية إليها، وتوفير فرص المعلومات والتقنية لها التزاماً دينياً مبنياً على اعتبارات تاريخية ولاهوتية.

لقد تعاظم الأثر اليهودي في السلوك والفكر والإيمان الكنسي البروتستانتي في الوقت الراهن، حتى أصبحت بعض الكنائس الأمريكية تصف نفسها بأنها "مسيحية صهيونية"، ولا تتردد بإبراز دعاوى غير علمية وزائفة حول اعتبار يهود اليوم حفدة لبني إسرائيل القدامى، وأن هؤلاء الأحفاد تجب إعادتهم إلى وطنهم فلسطين حيث كانت اليهودية. ومن الغريب أن لا أحد من قادة الصهيونية المسيحية يوضح أيكون يهود اليوم هم ورثة ديانة، أم من نسل العبرانيين الأوائل؟ لكن من المؤكد أن هذه النظرية سيترتب عليها فوضى هائلة في السياسة الدولية، لأنها تعني أن من يعتنق البوذية فسيطالب بالصين، ومن يعتنق الكاثوليكية فسيطالب بإيطاليا، أو أن تعود إسطنبول إلى حوزة البيزنطيين، وأن يعود الأمريكيون أدراجهم إلى الدول الأوربية، وأن يعود الأستراليون إلى بريطانيا، والعرب إلى إسبانيا... إلخ.

من ناحية أخرى وفي مطلع هذا القرن الجديد، ظهر خلال السنة الأخيرة من ولاية الرئيس بيل كلنتون ميل متسارع في الشارع الأمريكي إلى «التمسك بالقيم الدينية، والتحلي برموزه والاحتماء به» في مواجهة تداعيات ثورة التقدم العلمي والتقني ولاسيما في جوانبها البيولوجية والاستنساخ... إلخ. إضافة إلى ما شاهده الشارع الأمريكي من "صدمة القيم" أثناء البث التلفزيوني الطويل، لفضيحة الرئيس كلنتون الجنسية مع مونيكا لوينسكي.

وقد لعبت القوى المسيحية الأصولية في الحزب الجمهوري دوراً رئيسياً في بروز هذه الظاهرة الدينية والنزوع إلى القيم الأخلاقية، وأسهم مفكرون يهود في دعم هذا الميل، وصياغته على نحو تطرح فيه منظومة قيم أخلاقية توراتية.

ويقول قادة يهود إن الآباء المؤسسين لأمريكا «نقلوا عن التوراة واقتبسوا منها واستندوا إليها، عندما كانوا يضعون الدستور»، ويقولون أيضاً: «إن المسيحية البروتستانتية صارت فرعاً من اليهودية، إن لم يكن قد تهودت». ويضيفون أيضاً: «إن أمريكا لن تستقيم إلا بالعودة إلى أخلاقيات التوراة، والسلوك اليهودي... إلخ»[80].

وفي مثل هذه الأجواء والظواهر الأخلاقية والسياسية، ولأسباب متعددة أخرى، جاء ترشيح الحزب الديمقراطي للمرشح اليهودي المتدين جوزيف ليبرمان، ليكون أول مرشح يهودي في التاريخ الأمريكي لنائب الرئيس في نهاية عام 2000. كما جاءت هذه الجرعة المكثفة من المعاني الدينية، في خطاب الرئيس الجمهوري الفائز جورج بوش الابن، في حفل تنصيبه يوم 20 كانون الثاني/ يناير 2001.

ماذا يعني ذلك؟!

يعني في جانب بارز منه أن هذه الظاهرة إذا ما استمرت وتعمقت فإنها ستترك آثاراً كبيرة داخل المجتمع الأمريكي نفسه، وبخاصة تجاه طرح منظومة قيم مختلفة مستندة إلى مبادئ توراتية. كما سيكون لهذه الظاهرة أبعادها على مستوى العلاقات الأمريكية مع العالم الخارجي، وبخاصة في إطار الهيمنة الثقافية والقيمية الأخلاقية، ولعل هذا النوع من الهيمنة قد يدفع باتجاه إدخال "الاصطفاء الإلهي" في السياسة الدولية[81].

وفي الخلاصة يمكن القول: إن المشهد الديني في الصراع العربي-الصهيوني هو عامل حاسم في هذا الصراع، تكويناً ومساراً، وقد آن الأوان لقراءة هذا المشهد وتحليل وقائعه وتأثيراته والتعامل معه، وبخاصة أن مخاطره تتجاوز المسائل اللاهوتية الموضوعة شروحها في قوالب عبرانية، كما تتعدى حدود الكنائس إلى مطابقة الفكر والمعتقدات النبوئية التوراتية، على الأحداث السياسية الجارية المتعلقة بالصراع العربي مع المشروع الصهيوني التوسعي الاستيطاني الإحلالي العنصري، وذلك بإخضاع كل القيم السماوية والأرضية لامتيازات خاصة، بجماعة معينة من البشر، ومن ثم فإن هذه المعتقدات المتهودة هي إنكار لمثل العدل، ومحبة الفرد الإنساني الواردة في تعاليم الأديان السماوية.

إن المتابع لأدبيات هذه المنظمات الصهيونية المسيحية يلاحظ مدى تقديسها للمادة والعنف وتأليه القوة، وفصل الروح عن الطبيعة، والشخصية عن الأنا الإنسانية الحقة، وأفرزت هذه الاتجاهات المتهودة ثقافة شعبية تعتبر "العنف فضيلة"، حتى بات الدين المسيحي يفسر لديها ويقدم وكأنه يعظم العنف ويقدسه، وتحولت المسيحية على أيدي هؤلاء

إلى تاريخ للحروب، تحت شعار "لاهوت العنف الشرعي". وقد أتاح هذا اللاهوت لهؤلاء أن يعلنوا «أن الله يقف إلى جانبهم»، وأن الحرب التي تخوضها "إسرائيل" هي حرب عادلة، في الوقت الذي يتمحور فيه الإنجيل بكليته حول "اللاعنف" والمسامحة والمسالمة، فمسخوا حلم المسيحية الحقة بمصالحة الإنسان مع نفسه ومع الآخرين ومع الطبيعة، والنفس مع العقل.

هكذا تدهورت في هذه الاتجاهات المتهودة القيم الأخلاقية الدينية إلى درجة القول بأنك «تقتل عدوك بمحبة»! إنها اتجاهات مشوهة ومغشوشة وخطرة، وقد آن أوان كشفها وإحباطها.

الهوامش

1. لي أوبرين، **المنظمات اليهودية الأمريكية ونشاطاتها في دعم إسرائيل**، ترجمة محمود أبوزيد وآخرين (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1986)، ص11.

2. انظر:

Henry L. Feingold, *Zion in America* (New York, NY: Hippocrene Book, 1974), 252.

3. انظر:

Peter Grose, *Israel in the Mind of America* (New York, NY: Alfred Knopf, 1983), 63.

4. انظر:

Grace Halsell, *Prophecy and Politics* (Lawrence Hill and Co., 1986), 74.

5. إكرام لمعي، **الاختراق الصهيوني للمسيحية** (القاهرة: دار الشروق، 1993)، ص6.

6. عبدالوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ج4 (القاهرة: دار الشروق، 1999)، ص280.

7. البابا شنودة الثالث؛ **المسيحية وإسرائيل** (القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1971)، ص15.

8. عبدالوهاب المسيري، مرجع سابق، ج6، ص139.

9. المرجع السابق، ص140.

10. ريجينا الشريف؛ **الصهيونية غير اليهودية**، ترجمة أحمد عبدالعزيز، سلسلة **عالم المعرفة** (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1985)، ص91.

11. ثروت عكاشة؛ **موسوعة تاريخ الفن، فنون عصر النهضة**، ج9 (أبوظبي: دار السويدي للنشر، 1998)، ص268.

12 . انظر :

Barbara W. Tuchman, *Bible & Sword* (New York, NY: New York University Press, 1984), 162.

13 . أسعد رزوق : **إسرائيل الكبرى** (بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية ، 1968) ، ص61 .

14 . أمين عبدالله محمود ، **مشاريع الاستيطان اليهودي** ، سلسلة **عالم المعرفة** (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1984) .

15 . Tuchman, op. cit., 175.

16 . كيث وايتلام ؛ **اختلاق إسرائيل القديمة** ، ترجمة سحر الهنيدي ، سلسلة **عالم المعرفة** (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1999) ، ص130 .

17 . انظر :

Reuben Fink, *America and Palestine* (New York, NY: Herald Square Press, 1944), 26.

18 . نصر شمالي ، **إفلاس النظرية الصهيونية** (بيروت : منشورات فلسطين المحتلة ، 1981) ، ص88 .

19 . كلود جوليان ، **الإمبراطورية الأمريكية** ، ترجمة زهير الحكيم (بيروت : دار الحقيقة ، 1980) ، ص70 .

20 . انظر :

Routh W. Mouly, "Zionism in America," *American Journal of Theology* (Sep. 1983), 98.

21 . انظر :

L. L. Kenen, *Israel Defence Line* (New York, NY: Prometheus Book, 1981), 8.

22 . Grose, op. cit., 37.

جذور الانحياز: دراسة في تأثير الأصولية المسيحية
في السياسة الأمريكية تجاه القضية الفلسطينية

23 . انظر :

William M. Evan, *Decision in Palestine* (California, CA: Hoover Institution Press, 1979), 17.

24 . انظر :

Routh W. Mouly, "Israel: Darling of the Religious Right," *Humanist Magazine* (May 1982), 6.

25 . Ibid., 8.

26 . محمد السماك ، **الأصولية الإنجيلية** (مالطا : مركز دراسات العالم الإسلامي ، 1991) ، ص124 .

27 . المرجع السابق ، ص125 .

28 . *Christianity Today* (July 21, 1967).

29 . انظر :

Hal Lindsey, *The Late Great Planet Earth* (New York, NY: Bantam Books, 1970), 45.

30 . *Christianity Today* (July 26, 1967).

31 . انظر :

Gerald S. Strober, *American Jews* (New York, NY: Doubleday, 1974), 87.

32 . انظر :

Ingram O. Kellys, "Christian Zionism," *The Link* (November, 1983), 8.

33 . Strober, op. cit., 89.

34 . انظر :

Jerry Falwell, *Listen America* (New York, NY: Doubleday, 1980), 215.

35 . رضا هلال ، **المسيح اليهودي ونهاية العالم** (القاهرة : مكتبة الشروق ، 2000) ، ص13 .

36. Halsell, op. cit., 140.

37. Ibid, 148.

38. Falwell, op. cit., 113.

39. *Time* (September. 2, 1985).

40. انظر:

Oral Roberts, *The Drama of the End-Time* (New York, NY: Oral Press, 1973), 182.

41. *Today* (November, 18, 1977), 49.

42. *Parade Magazine* (July 19, 1981).

43. إيان لوستك، **الأصولية اليهودية في إسرائيل**، ترجمة حسني زينة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1991)، ص49.

44. *Religious News Service* (February, 2, 1978).

45. إيان لوستك، مرجع سابق، ص13.

46. *Washington Times* (November, 15, 1985).

47. انظر:

Doris A. Graber, *Mass Media and American Politics* (Washington, DC: Congressional Quarterly Press, 1980), 3.

48. *Christianity Today* (December, 12, 1980): 30.

49. Ibid., 29.

50. *Christian Science Monitor* (September, 24, 1981).

51. يوسف الحسن، **من أوراق واشنطن** (القاهرة: دار المستقبل العربي، 1986)، ص76.

52. المرجع السابق، ص95.

53. *Jerusalem Post* (28 October 1980).

54. *Washington Post* (21 October 1984).

55. Ibid.

56. Ibid.

57. *News Week* (5 November 1984).

58. انظر:

Jerry Falwell, *The Fundamentalist Phenomenon* (New York, NY: Doubleday, 1983), 273.

59. انظر:

Thomas Wiley, *American Christianity* (Washington, DC: Georgetown University, 1983), 7.

60. Ibid., 8.

61. *Washington Post* (11 November 1975).

62. مصطلح الأصولية مصطلح غربي، يحمل مضموناً غربياً شديد الشذوذ والغرابة، فهو فكر رجعي متخلف، مضاد للعقل والعلم والتحديث. ويطلق على أصحاب الاتجاهات الدينية المتشددة في مسائل العقيدة والأخلاق، وأخذت اسمها لأول مرة من مطبوعة أمريكية بالاسم نفسه صدرت في الفترة 1909-1919، حيث كانت ترى في العلمانية والتحديث خطراً يهدد الرسالة التاريخية للكنيسة.

63. انظر:

Yearbook of American and Canadian Churches (Nashville: Addingdon Press, 1984), 36.

64. ريجنيا الشريف، مرجع سابق، ص112.

65. انظر:

Wolf Blitzer, *Between Washington and Jerusalem* (New York, NY: Oxford University Press, 1985), 198.

66. *Washington Post* (21 November 1984).

67. *Washington Post* (6 March 1981).

68. *Washington Jewish Week* (23 February 1984).

69. *Time* (2 September 1985).

70. *New York Times* (1 March 1985).

71. *Washington Times* (11 February 1986).

72. *New York Times* (18 December 1983).

73. *Religious Broadcasting Magazine* (February 1986): 68-63.

74. انظر:

Paul Findley, *They Dare to Speak Out* (Conn: Lawrence Hill and Co. 1985), 244.

75. *New York Times* (10 November 1985).

76. *Time* (2 September 1985), 49.

77. *Washington Post* (21 April 1984).

78. *Washington Post* (6 April 1985).

79. *Los Angeles Times* (4 March 1981).

80. جميل مطر، "تهويد القيم"، صحيفة **الخليج**، الشارقة (21 December 2000).

81. الشيخ محمد مهدي شمس الدين، محاضرة في ندوة التراث الإبراهيمي نظمها مجلس كنائس الشرق الأوسط (بيروت: تموز/ يوليو 1998).

نبذة عن المحاضر

د. يوسف الحسن

يحمل درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية، ويشغل منصب وزير مفوض بوزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة، حيث يعمل في السلك الدبلوماسي منذ عام 1972، وقد مثّل الدولة في العديد من المؤتمرات والندوات الإقليمية والدولية، واجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، كما شارك في الحوار العربي ـ الأفريقي.

أشرف على تنظيم الندوة الدبلوماسية السنوية التي تنظمها وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة منذ عام 1986، كما رأس تحرير مجلة **الدبلوماسي**، وله العديد من المشاركات في الأنشطة الثقافية في الدولة وخارجها، وهو عضو في العديد من الجمعيات والمنظمات الثقافية والفكرية والإنسانية العربية منها والدولية.

كان أحد مؤسسي جريدة **الخليج** الإماراتية حيث صدرت لأول مرة عام 1970، وشغل منصب أول رئيس تحرير لها، وكتب ونشر العديد من البحوث العلمية والمقالات في صحف ومجلات عربية وعالمية، وهو باحث مختص في العلاقات الدولية، وقضايا الصراع العربي ـ الصهيوني، والحوار بين الحضارات، وأمن الخليج العربي. وقد صدر له العديد من المؤلفات أبرزها: **الحركة المسيحية الأصولية في الولايات المتحدة الأمريكية**؛ و**اندماج: دراسة في العلاقات الخاصة بين إسرائيل وأمريكا**، و**نحو دبلوماسية عربية معاصرة**؛ و**مستقبل دولة الرفاه في الخليج**؛ و**الحوار الإسلامي المسيحي**، كما قام بتحرير العديد من المؤلفات منها: «أمن الخليج وتسوية الصراع العربي ـ الصهيوني»، و«حوار الحضارات»، و«الإمارات وحقوق الإنسان».